الفصل الحادى عشر

من دريدن إلى سو يفت ١٦٦٠ — ١٧١٤

١ — صحافة حرة

ترى ماذا حدا برجل فرنسى أن يكتب فى ١٧١٢ بزت « انجلترا فرنسا فى الانتاج الأدبى كما وكيفا وأن مركز الحياة العقلية والفكرية .. انتقل أكثر فأكثر إلى الشمال حتى قام الإنجليز حوالى عام ١٧٠٠ « بأكبر دور خلاق[١] » إن رجلا انجليزيا نعم بمآثر فرنسا يرد التحية فيقول : إن جزءا من هذا الحافز جاء عن طريق آداب السلوك والعادات التى جلبها شارل الثانى والمهاجرون العائدون ، وأن جزءا آخر نبع من ديكارت وباسكال وكورنيل وراسين وموليير وبوالو ومدموازيل دى سكودرى ومدام دى لافايت ، ومن الفرنسيين المقيمين فى انجلترا مثل سانت أفرموند وجرامونت . وأنا لنرى التأثير الفرنسى فى الملهيات الشهوانية الجنسية والمأسيات البطولية التى ظهرت على المسرح فى عودة الملكية ، وفى الانتقال من غزارة النثر فى عهد اليزابث وتلافيف فترات ملتون إلى النثر المهذب المصقول المنطقى الذى دبجه دريدن وهو يكتب المقدمات وإلى الشعر الذى نظمه بوب : ومضى الآن قرن من الزمان (١٦٧٠ — ١٧٧٠) كان الأدب الإنجليزى فيه نثرا ، حتى ولو كان موزونا مقفى ، ولكنه نثرا نغما واضحا ممتازا من الطراز الأول .

ومهما يكن من أمر فان الأثر الفرنسى كان مجرد استحثاث ، ولكن جذور المسألة كانت فى وسع انجلترا نفسها : فى عودة الملكية المقرونة بالبهجة والفرح والتحرر ، وفى التوسع الاستعمارى ، وفى إثراء الفكر بفضل

التجارة ، وفى الانتصارات البحرية على الهولنديين ، وفى قهرها (١٧١٣) لفرنسا التى كانت قد انتصرت على أسبانيا . ومن ثم انفتح الطريق إلى الامبراطورية شمالا ، وكما أجرى لويس الرابع عشر الرواتب على المؤلفين بوصفها رضيخة أو رشوة تمنح الأنصار ، فان الحكومة الإنجليزية ، بطريقة شبيهة بهذه ، كافأت الشعراء أو الناثرين المحبين لوطنهم أو المشايعين للحكومة — دريدن كونجريف ، جاى ، برير ، أديسون ، سويفت — بالرواتب تخصصا لهم ، ويتناول الطعام على موائد الارستقراطية ، وبحصة على المبيعات من المطبوعات ، أو بالوظائف ذوات الدخل الكبير والجهد اليسير فى الإدارة ، من ذلك أن أحدهم صار وزيرا ، ونظر فولتير فى شىء من الحسد إلى هذه الوظائف السياسية(٢) . ورعى شارل الثانى العلم والجمال لا الأدب والفن . ولم يستثر وليم الثالث والملكة آن بالأدب . ولكن وزراءهم — حين وجدوا أن الكتاب نافعون فى عصر الصحافة والنشرات والمقاهى والدعاية — أغدقوا المال على الأقلام التى يمكن أن تخدم التاج أو الحزب أو الحرب . وأصبح الكتاب سياسيين ثانويين ، وبعضهم مثل برار Prior ، صار من رجال السلك الدبلوماسى ، وبعضهم مثل سويفت وأديسون برع فى التعيين فى الوظائف وفى المحسوبية وفى التدخل فى شئون السلطة . وأهدى المؤلفون أعمالهم إلى اللوردات وسيدات المجتمع ، تقديرا كريما لما ينتظر أن يحظوا به من خيرات وفضل وعطف ووصال ، فى عبارات اهداء ملؤها المديح والاطراء والتحيات والتمنيات ، مما جعل هؤلاء السيدات وأولئك اللوردات أسمى من أبوللو أوفينوس فى جمال الجسم والقوام ، ومن شكسبير وسافو فى كمال العقل والذهن .

وساعدت الحرية الذهب على اطلاق العنان لفيضان المداد وجريان القلم . وكانت قصيدة ملتون « أريوباجيتيكا » قد اخفقت فى القضاء على « قانون الرقابة » ، الذى تحكمت به الرقابة فى الصحافة فى عهد ملوك أسرتى التيودور وستيوارت ، واستمر القانون نافذ المفعول فى عهد كرومول غير المستقر ،

وبعده فى عودة الملكيه لآل ستيوارت ، ولكن حين بدأت حكومة جيمس الثانى فى إزعاج الأمه ، شرع عدد أكبر فأكبر من كتاب الكراسات والنشرات يتحدون القانون ويدخلون السرور على قلوب الشعب . وعندما اعتلى وليم الثالث العرش ، كان هو وأنصاره « الأحرار » مدينين بأكبر الفضل للصحافة إلى حد أنهم عارضوا تجديد قانون الرقابة ، فانتهى العمل به ١٦٩٤ ، ولم يجدد ، وتدعمت حرية الصحافة تلقائياً . وربما ظل الوزراء الملكيون يعتقلون الكتاب بسبب هجماتهم العنيفة للتطرف على الحكومة وظل « قانون التجديف » (١٦٩٧) يفرض عقوبات صارمة على التشكك فى أساسيات الدين للمسيحى ، ولكن انجلترا نعمت منذ ذلك الوقت فصاعدا بحرية الأدب التى أسهمت ، على الرغم من سوء استخدامها غالباً ، إسهاماً كبيراً فى نمو الفكر الانجليزى .

وتضاعف عدد الدوريات ، وانتظم صدور الصحف الأسبوعية منذ ١٦٢٢ ، وعطلها كرومول جميعاً ماعدا اثنتين ، ورخص شارل الثانى فى صدور ثلاث منها تحت إشراف رسمى ، أصبحت واحدة منها هى « أكسفورد » وفيما بعد لندن جازيت « الناطقة باسم الحكومة » وكانت تصدر نصف شهرية أو نصف أسبوعيه منذ ١٦٦٥ . وفور إلغاء قانون الرقابة صدرت عدة صحف أسبوعية . وفى ١٦٩٥ أسس المحافظون أول جريدة يومية انجليزية « ساعى البريد Post Boy » والتى لم تصدر إلا أربعة أيام فقط ، حيث عاكسها « الأحرار » فى الحال بصحيفة « البريد الطائر Flying Post » . وأخيراً فى ١٧٠٢ أصبحت The English Courant هى الصحيفة اليومية المنتظمة فى انجلترا — فرخ صغير من الورق مطبوع على وجه واحد فقط ، تقص الأنباء ولا تدون آراء ، ومن هذه الهبات المتقطعة نشأت عمالقة الإعلان التى تراها اليوم بين أيدينا .

وأتى ديفو بمستوى جديد فى صحيفه « ريفيو » (١٧٠٤ ١٧١٣) وكانت أسبوعية تقدم التعليقات كما تقدم الأنباء . وهى التى بدأت القصة

المسلسلة وتبعه ستيل فى « تاتلر » (١٧٠٩ - ١٧١١) . وسما هو وأديسون بهذا التطور إلى ذروته التاريخية فى « سبكتاتور » (١٧١١ — ١٧١٢) وروع حكومة المحافظين التوزيع الإجمالى وتأثير الصحف اليومية والأسبوعية والشهرية ، ففرضت عليها ضريبة ثمنة تتراوح بين نصف بنس و بنس واحد مما جعل البقاء مستحيلا بالنسبة لمعظم الدوريات . وكانت « سبكتاتور » إحدى الدوريات التى احتجبت . وقال سويفت لبطلته وصديقته ستللا : « لقد دمروا شارع Grub بأسره[٣] (الشارع الذى يقطنه محررو الصحف) . وأصدر بولنجبروك فى ١٧١٠ « اجزامنر Examiner » الأسبوعية ليدافع فيها عن سياسة وزارة المحافظين . ووجد فى جوناثان سويفت رجلا واسع الاطلاع لاذع القدح والطعن ، متوقد الذكاء . لقد وقع المال على أداة جديدة ، وطغى سلطان الصحافة الدورية شيئاً فشيئاً على تأثير المنابر فى تشكيل الرأى العام ، وإعداده للأهداف الخاصة ، ودخلت التاريخ قوة جديدة تنزع عن الناس الصبغة الدينية وتنزع بهم إلى التعلق بالأمور الدنيويه .

١١ — المسرحية فى فترة عودة الملكية

فيما بين عامى ١٦٦٠ و ١٧٠٠ كان ثمة أداة أخرى شكلت أو شوهت أو عبرت مجرد تعبير عن روح لندن المجردة من الحيويه والنشاط . وحيث استطاب شارل الثانى المسرحيه الباريسيه فإنه أجاز فتح مسرحين : الأول للملك وجماعته فى « درورى لين » والثانى لدوق يورك وجماعته فى « لنكولن ان فيلدز » وفى ١٧٠٥ افتتح مسرح الملكة فى هايماركت ، ولكنها نادراً ماشهدت التمثيل فيه وفى أيام شارل الثانى كان مسرحان اثنان يفيان بالحاجه عادة . وظل البيوريتانيون يقاطعون المسرحيه ، أما الجمهور بصفه عامه على أيه حال ، فلم يكن يرخص له بدخول المسارح بين ١٦٦٠ و ١٧٠٠[٤] ولم يقصد إليها فى معظم الأحوال إلا كل عربيد ماجن من رجال الحاشيه ، وحثالة الطبقه الأرستقراطيه والمتصلين بها ، والأثرياء المتمطاين الذين

يقضون أوقاتهم فى المسارح والنوادى وسباق الخيل وغيرها . يقول : دكتور جونسون الوقور : « أن المحامى الوقور ليحط من قدره ويمتهن كرامته ، وأن المحامى الناشىء ليسىء إلى سمعته ، إذا غشى بيوت الاباحية للنحلة هذه(٥) » وشكل النساء قسما صغيراً من النظارة على أنهن إذا ذهبن إلى المسرح كن يخفين شخصياتهن وراء الأقنعة(٦) . وكانت العروض تبدأ فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، حتى إذا تحسنت الإضاءة فى الشوارع (حوالى ١٦٩٠) أجلت إلى السادسة . وكان أجر الدخول أربعة شلنات للمقصورات وللمقاعد الخلفية شلنين ونصف وللشرفات شلنا واحداً . وكانت أجهزة التأثير المسرحى وتغيير المناظر أكثر إتقاناً بكثير عما كانت عليه فى أيام اليزابيث . ولو أن حجرة نوم واحدة وملحقاتها ربما كانت تكفى لمعظم ملهيات عصر عودة الملكية ، وحلت الممثلات محل الغلمان فى تأدية أدوار النساء ، وكن كذلك عشيقات ، من ذلك أن مرجريت هيوز التى مثلت ديدمونا لأول مرة ظهرت فيها امرأة على المسرح الانجليزى (٨ ديسمبر ١٦٦٠) كانت عشيقة الأمير روبرت(٧) . وفى عرض لمسرحية دريدن « الحب الاستبدادى » تعلق قلب شارل الثانى لأول مرة بخليلته نل جوين التى كانت تمثل دور فاليريا(٨) . إن طبيعة جمهور المشاهدين ، ورد الفعل ضد البيوريتانية ، وأخلاق البلاط ، وذكريات روايات عصرى اليزابيث وجيمس الأول (وبخاصة روايات بن جونسون) وأحياء هذه الروايات واستعادة تلك الذكريات من جديد ، وتأثير المسرح الفرنسى والملكيين المهاجرين ، كانت كلها عوامل تجمعت لتشكل المسرحية أيام عودة الملكية .

وكان الإسم اللامع فى « مسرحية المأساة » فى عودة الملكية هو دريدن لنتركه مؤقتاً ، لنتحدث عن مسرحية توماس أوتواى « الحفاظ على فينيسيا » التى عمرت بعد كل روايات دريدن وظلت تمثل حتى ١٩٠٤ . إنها قصة حب مطعمه بمؤامرة أصدقاء كونت دى أوزونا لقلب سناتو فينسيا فى ١٦١٦ . ويرجع ماصادفته من نجاح فى البداية من ناحيه ، إلى الصورة الساخرة التى

رسمتها لإرل شافتسبرى الأول (عدو شارل الثانى وصديق لوك) فى شخصيه أنطونيو الذى يحب أن تضربه عشيقته البغى ، ومن ناحية أخرى إلى التشابه بين هذه المؤامرة وبين المؤامرة البابويه «الحديثه» ومن ناحيه ثالثه إلى تمثيل توماس بترتون ومسز البزابيث بارى ، ولكن الروايه تقف اليوم على قدميها إن مناظرها الهزليه سخيفه مؤذية ، خاتمتها تنشر الموت فى إجماع أقرب شبها بالمسرحيه الموسيقيه (الأوبرا) ، ولكن حبكه الروايه متقنه دقيقه ، وشخوصها مصورة تصويراً مميزاً ، والحركة مسرحيه إلى أبعد حد ، والشعر المرسل فيها ينافس مثيله فى المسرحيه فى عصر اليزابيث ، باستثناء مارلو وشكسبير . ووقع أوتواى فى غرام مسز بارى ، ولكنها آثرت عليه معاشرة إرل روشستير ، وبعد كتابه عدة مسرحيات أخرى ناجحه أخرج الشاعر سلسلة من الروايات لم يكتب لها النجاح ، وانحدر إلى مهاوى الفقر والعوز وفى روايه أنه مات جوعا(٩) .

إن ذكرى المسرحيه فى فترة عودة الملكيه حيه من أجل ملهياتها . فإن ما كان فى هذه الملهيات من مرح وسخريه ، ومحاورات داعرة ، ومغامرات فى المخدع ، بالإضافه إلى قيمتها فى أنها مرآة تعكس حياة طبقه واحدة فى جيل واحد . كل أولئك أكسبها شعبيه جزئيه ، إن لم تكن مختلسه لا تكاد تستحقها . فإن مجالها ضيق إذا قيست بملهيات عصر اليزابيث أو موليير ، وأنها لا تصور الحياة بل تصف عادات المتعطلين المتسكعين فى المدن والحاشيه الخليعه المتهتكه ، وتتجاهل الريف إلا إذا أخذوه هدفا للاستهزاء والسخريه ، أو « سيبيريا » ينفى إليها الأزواج زوجاتهم للتطفلات . إن بعض المسرحيين الإنجليز شاهدوا موليير يمثل أو تمثل رواياته ، واستعار بعضهم شخوصه أو حبكات مسرحياته ، ولكن أحدا منهم لم يبلغ نزعته فى مناقشه الأفكار الاساسيه ، فالفكرة الأساسيه الوحيدة فى هذه الملهيات هى أن الزنى هو الهدف الرئيسى لأعظم عمل بطولى فى الحياة . وكان المثل الأعلى للرجل فيها هو ماوصفه دريدن فى « المنجم المزاة » على أنه « سيد ماجد » رجل ثرى

ماطل يغشى النوادى وللقاهى وللمسارح والمواخير ، يرتدى أفخر الثياب ، يأكل ويشرب ويفسق ويعاشر البغايا إلى أقصى حد ممكن » . وفى رواية ڤاركو « خداع العاشقين » جاء على لسان أحد الشخصيات ، وكأنما يقول سيد مهذب لآخر : « إنى أحب جوادا جميلا ولكنى أتركه لرجل آخر ليتولى العناية بأمره ، وإنى كذلك بالمثل أحب سيدة جميلة »(١٠) وهذا لا يعنى أنه لايشتهى زوجة جاره ولا يمد عينيه إليها ، بل أنه يريد أن يستمتع بكل مفاتنها وأطايبها ، على حين ترك لزوجها أن يرعى شئونها وينفق عليها . وفى رواية كونجريف « طريق الحياة الدنيا » يقول ميرابل للعشوق موضع الإعجاب لزوجة صديقه « يجب أن تشعرى بالاشمئزاز والنفور والكراهية لزوجك بما يجعلك تستمتعين بحبيبك أو عشيقك(١١) » . ويندر أن ترى الحب فى هذه الروايات يرتفع فوق الشهوة الجسدية التى تلتهف بين جوانح الطرفين ، يريدان إطفاءها . وإنا لنتلهف عند قراءتها أن تقع العين على ظل لمعانى النبل والشرف ، ولكنا لانرى فيها ألا أخلاقيات للمواخير وبيوت الدعارة .

إن وليم وتشرلى هو الذى استهل هذا التقليد . وكان أبوه ملكيا من أسرة عريقة تملك ضيعة كبيرة ، وأرسل ولده إلى فرنسا لتلقى العلم ، عندما تولى البيوريتانيون مقاليد الحكم فى إنجلترا ، إصرارا منه على ألا ينشأ الولد بيوريتانيا . ولم يعتنق وليم قط هذا المذهب ، ولكن الأسرة صعقت حين أصبح كاثوليكيا . وسرعان ماعاد إلى البروتستانتية لدى عودته إلى انجلترا ، وهناك درس فى أكسفورد وتركها دون الحصول على درجة جامعية . وإنصرف إلى كتابة الروايات . وجمع ثروة من رواية « حب فى الغابة » (١٦٧١) التى أهداها إلى ليدى كاسلمين . واستقبله فى البلاط الملك الودود اللطيف الذى لم يشك ولم يتذمر حين وجد آن وتشرلى وتشرشل كليهما ، يشاركانه غرام عشيقته كاسلمين(١٢) .

واشترك وليم فى الحرب الهولندية ١٦٧٢ ، ببسالة متوقعة من سيد

ماجد ، وعاد إلى انجلترا ولم يمسسه سوء ، وأحرز نجاحا آخر فى « الزوجة الريفية » (١٦٧٢) . ودعى النظارة فى المقدمة ـ إذا لم تعجبهم الرواية ـ إلى دخول غرفة ملابس الممثلين فى ختامها ، وهناك :

« فإننا عن طيب خاطر ... نتخلى لكم يا شعراءنا ، عن العذارى ، لا بل عن عشيقاتنا كذلك » .

وخلاصة الموضوع أن مستر بنشويف اصطحب زوجته معه لقضاء أسبوع فى لندن ، وأحكم حراستها إلى حد أنها أوقعت فى شرك الغواية تحت سمعه وبصره ، ذلك أن من يدعى مسترهورنر ـ العائد من فرنسا لتوه ، والمتلهف على الوصول إلى الزوجات دون عائق ـ أذاع بين الناس أنه خصى ، ومن هنا يستنتج بنشويف أنه لاحرج فى أن يفتح بيته لمثل هذا العنين العاجز ، ولكنه سرعان ما يكتشف أن زوجته تكتب رسالة غرامية إلى هذا الزير المتودد إليها الذى أدعى المنة ، فيرغمها على كتابة رسالة أخرى تكيل له فيها أقذع السباب والشتائم ، وما أن أدار الزوج ظهره حتى أسرعت هى فوضعت رسالتها الغرامية الأولى مكان الرسالة الثانية التى تنم عن الغضب والاستياء . وسلم الزوج المزهو المفاخر بالسيطرة على الموقف الرسالة الأصلية إلى هورنر . وبعد فترة اتجه ظن الزوج إلى أن هورنر أقدر مما تردده عنه الشائعات ، ففكر فى أن يشغله ، ووافق على أن يأخذ إليه أخته أليثيا . وتتنكر الزوجة حتى تبدو وكأنها أليثيا ، ويحملها زوجها إلى عشيقها . وتختتم الرواية « برقصة الديوث » ، وهورنر هو المنتصر فى النهاية ، ثم تلقى إحدى الممثلات شعراً توجه فيه اللوم والتقريع إلى الرجال الحاضرين ، لأنهم لايتحلون بقدر كاف من الرجولة .

« وقد يظل الناس على اعتقادهم بأنكم تمتلكون قوة ورجولة ، ولكنا نحن النساء لاسبيل إلى خداعنا » .

واقتبس وتشرلى كثيراً من « الزوجة الريفية » من رواية موليير « مدرسة الأزواج ومدرسة الزوجات » وفى روايته التالية « التاجر

الشريف » حول وتشرلى شخصية « ألست » فى رواية موليير « مبغض البشر » إلى شخصية كابتن مانلى الذى لم تتعد فكرته عن التعامل الشريف، مجرد تناول كل الناس والأشياء بلغة بذيئة مقذعة . والغريب للدهش فى الأمر أن سكان لندن ، بل حتى سكان بعض الضواحى ، أحبوا وصف الحياة على أنها سعى متصل وراء شهوة الجسد ، يلطف منه بعض التجديف فى الحديث . وفى إحدى المكتبات فى « تنبريدج ولز » سمع وتشرلى إحدى السيدات تسأل عن كتابه المنشور حديثاً « التاجر الشريف » فغمرته نشوة الفرح ، ولم تكن هذه إلا كونتس دور جيدا ، الأرملة الثرية ، فطلب يدها وتزوجها . ووجد أنها كانت تضعه تحت مراقبة أشد وأكثر مثابرة مما كان يفعل بنشويف ، ولكنها ماتت فجأة فظن أن أموالها لابد أن تؤول الآن إليه ، ولكن القضايا القانونية التى تشابكت فيها التركة حالت دون ذلك ، فلم يستفد منها شيئاً . وعجز عن تسديد الديون التى كان قد اقترضها ثقة منه بأيلولة التركة إليه ، فأرسل إلى السجن حيث قضى سبع سنين وهنت فيها عزيمته وذبل نشاطه ، حتى جاء جيمس الثانى ، وسدد — قبل إرتداد وتشرلى إلى الكاثوليكية ثانية أو بعده — ديونه وأجرى عليه راتبا . وبلغ وتشرلى أرذل العمر فى شقاء ومعاناه . وظل مع عجزه يلاحق النساء ، ويكتب نظما ، حاول صديقه الشاب بوب أن يحوله إلى شعر . وفى سن الخامسة والسبعين تزوج الفاجر العجوز امرأة شابة ، ولم يعمر بعد الزواج إلا عشرة أيام ، ووافته المنية فى أول يناير ١٧١٦

وكان سيرجون فاير وألطف من كتب عن الزنى والزناة . وكان « جون بول » (الرجل الإنجليزى النموذجى) يتجسد فيه تماماً ، فهو خشن مرح طلق المحيا ، يحب طعام انجلترا وشرابها ، ولو أن جده لوالده هو جلليس فإن برو ، وهو فلمنكى من مدينة غنت قدم إلى بريطانيا فى عهد جيمس الأول . وكان جون يبشر بحسن المستقبل إلى حد أنه أرسل إلى باريس فى سن التاسعة عشرة ليدرس الفن . فلما عاد فى الحادية والعشرين التحق

بالجيش ، وقبض عليه فى كاليه بتهمة أنه جاسوس بريطانى ، وقضى مدة فى الباستيل ، وهناك كتب المسودة الأولى « للزوجة المغيظة » حتى إذا ماخرج من السجن عكف على كتابة الروايات . وفى ستة أسابيع ـ كما يروى لنا هو ـ فكر وتصور ، ثم كتب ومثل رواية « النكسة » (١٦٩٦) ، بمافيها من هجاء مرح للمتأنقين فى لندن ، مثل لوردفوبنجتون وملاك الأرض فى الريف مثل سيرتنبلى كلمزى ، ومس هويدن الشهوانية . وكان سيرتنبلى يضمها تحت الرقابة والحراسة منذ بلغت الحلم ، وفرح وابتهج لبراءتها وطهرها . « يا للبنت المسكينة : إنها ستفزغ وتنزعج فى ليلة عرسها ، لأنها ، والحق أقول ، لا تميز الرجل من المرأة إلا بلحيته وبطلونه القصير »(١٤) . ولكن مس هويدن تصف نفسها على نحو آخر : « من حسن حظى ، هناك عريس قادم ، وإلا تزوجت الخباز ، سأفعل ذلك . فما من أحد يستطيع أن يقرع الباب ، ولكن حاليا يجب على أن أختبىء ، وهنا يمكن الكلبة السلوقية الصغيرة تحوم حول البيت طوال اليوم ، إنها تستطيع ذلك » . وعندما يأتى توم فاشون ليطلب يدها ، ويمهله أبوها أسبوعا ، تحتج الفتاة وتقول « أسبوع : ولماذا ؟ إنى أكون عند ذاك امرأة عجوزاً »(١٥) :

ونجحت مسرحية « النكسة » نجاحا كبيرا إلى حد أن فانبرو تعجل إكمال « الزوجة المغيظة » (١٦٩٧) وكانت هذه من أنجح أعمال ذاك العصر . وظل دافيد جارك طيلة نصف القرن التالى يتحف لندن ويمتعها بتمثيله المستهتر لشخصية سيرجون بروت ، وهى أعظم شخصية مشهورة مذكورة بين كل شخوص المسرحيات فى فترة عودة الملكية . وسيرجون هذا وسيم هزلى ساخر يمثل المظاهر الأقرب شبها بالخنزير فى ملاك الأرض الانجليز ـ يشرب الخمر ، ويتباهى ، ويهدد ويتوعد ، ويستأسد ، ويعلن ويشكو من « عصر الالحاد اللعين هذا » . ويفتتح المسرحية برأيه فى الزواج حيث يقول :

«أى لحم متخم هو الحب ، إذا كان متبلا بالزواج ، إن عامين قضيتهما متزوجا قد أفسدا على حواسى الخمس . فكل شىء أراه ، وكل شىء أسمعه ، وكل شىء أحس به ، وكل شىء أشمه ، وكل شيء أتذوقه ، أظن أن فيه زوجة . فما ضجر ولد بمؤدبه ، ولا بنت ولا رجل بعمل الكفارة ، ولا عذراء عجوز بطهرها وعفتها ، قدر ضجرى بزواجى وسأمى إياه .

ومذ عرفت زوجته آراءه ، فإنها تفكر فى ترويضه بأن تجعل منه ديوثا.

ليدى بروت : إنه أساء معاملتى أبلغ إساءة مؤخرا . حتى كاد يستقر عزمى على أن ألعب دور الزوجة بكل ما فى الكلمة من معنى ، وأجعل منه ديوثا وأخونه ...

بيلندا : ولكنك تعلمين أنه ينبغى علينا أن نقابل الإساءة بالإحسان .

ليدى بروت : ربما كان هذا خطأ فى الترجمة(١٦) » .

وهنا تأتى جارتها ليدى فانسيفل التى تميل إلى ماتميل إليه ليدى بروت ، وتناقش شكوكها ومخاوفها مع وصيفتها الفرنسية التى تجيب بالفرنسية ، وهى هنا مترجمة :

ليدى ف : سمعتى يا آنسة : سمعتى :

الوصيفة : سيدتى ، إذا فقد المرء سمعته يوما ، فلن تعود بعد ذلك تزعجه .

ليدى ف : تبالك يا آنسة ، تبالك ، أن السمعة جوهرة .

الوصيفة : وقيمتها غالية جدا يا سيدتى .

ليدى ف : لماذا إذن ، يقينا أنك لن تضحى بشرفك من أجل متعتك ؟

الوصيفة : إنى فيلسوفة .

ليدى ف : انه لايتفق مع الشرف (لقاء العاشقين) .

الوصيفة : ولكنه للمتعة ...

ليدى ف : ولكن إذا كان العقل يصلح من شأن الطبيعة .

الوصيفة : عندئذ يكون العقل وقحا ، لأن الطبيعة أخته الكبرى . .

ليدى ف : إذن أنت تؤثرين طبيعتك على عقلك ؟

الوصيفة : نعم ، بكل تأكيد .

ليدى ف : ولمـــاذا ؟

الوصيفة : لأن طبيعتى تغمرنى بالبهجه والسرور ، أما عقلى فيورثنى الجنون(١٧) .

وربمـا كانت هذه الراوية هى التى أثارت غضب جرمى كوليير إلى حد أنه فى العام الذى تلا ظهورها ، نشر هجوما عنيفا على المسرحية فى فترة عودة الملـكية ، وعلى فانبرو بصفة خاصة . وكان كوليير كاهنا أنجليـكانيا على درجة من العلم ، ومن الشجاعة والتشدد فى عقيدته . وحيث كان قد أقسم يمين الولاء لجيمس الثانى ١٦٨٥ ، فإنه أبى أن يقسم يمين الولاء لوليم ومارى ١٦٨٩ . واستنـكر « الثورة الجليلة » ، حتى إلى حد التحريض على التمرد والعصيان . وقبض عليه ، ووجد أصدقاؤه مشقة كبيرة فى اقناعه بأن يسمحوا لإطلاق سراحه بـكفالتهم . ومنح الغفران المطلق لرجلين كانا على وشك أن يشنقا بتهمة التآمر على ما اعتبر كوليير أنها حكومة اغتصبت الحـكم . فأنـكر أسقفه عليه تصرفه وأدانه النائب العام ، ولـكنه رفض المثول أمام أية محكمة . وعاش طريد العدالة محروما من الـكنيسة حتى وافته المنيه . ولـكن الحـكومه قدرت نزاهته ، ولم تلاحقه بعد ذلك . وعبر وليم الثالث عن تقديره الـكبير للصفة التاريخيه التى قام بها كوليير .

وكان الـكتاب الذى نشره كوليير يحمل عنوان « لمحة قصيرة عن الانحلال والدنس فى المسرح الإنجليزى » . وكان يحوى ، كما حوت معظم الـكتب ، هراء كثيرا . واستنكرا الراعى الغاضب فى المسرحية الانجليزية أخطاء كثيرة قد تبدو لنا الآن تافهة ، أو أنها ليست أخطاء اطلاقا ، واعترض على أيه اشارة غير كريمه لرجل الدين ، ونشر فى سخاء شديد ، مظلة العصمه

من الخطأ فوق زعماء الوثنية والكهنة الكاثوليك والقساوسة المنشقين . أدان كثيرا من كتاب المسرح ، من أشيلس إلى شكسبير إلى كونجريف ودريدن ، حتى ليشعر كل المتهمين ببراءتهم لمجرد حشرهم فى زمرة هؤلاء العظماء . ولكن كوليير أضعف قضيته فى مجادلته فى أن للمسرح العام يجب ألا يتناول الجريمة أو الانحلال الخلقى مطلقا . ولكنه وجه بعض ضربات ناجحة لأن الأهداف البراقة واجهته فى كل مكان . فنعى على كثير من كتاب المسرح فى فترة عودة الملكية ما أبدوا من اعجاب بالاسفاف فى الزنى والفسق ، وأثر ذلك على جمهور المشاهدين . وظل الكتاب حديث لندن طيلة عام كامل . ودافع الروائيون عن أنفسهم بأساليب متنوعة ، وتحول فانبرو عن المسرحية إلى هندسة العمارة ، وانهمك لأكثر من عشر سنوات فى بناء قصر بلنهيم ، ثم شاد قصر هوارد على طراز عمارة بللاديو الرومانى الجميل (١٧١٤) . واعترف دريدن بخطاياه ، وأظهر ندمه على ما فعل وأنكر كونجريف جريمته ، ولكنه أصلح من فنه .

وبلغ وليم كونجريف بمسرحية عصر عودة الملكيه ذروتها ونهايتها معا . ولد بالقرب من ليدز فى ١٦٧٠ ، فى أسرة كانت عراقتها موضع فخره واعتزازه وسط كل ما أحرز من فوز ونجاح . وكان والده قائد حامية انجليزية فى أيرلنده ، ولذلك درس وليم فى مدرسة كالكنى ، وجلس على نفس المقعد الذى جلس عليه جوناثان سويفت ، ثم فى ترنتى كولدج فى دبلن ، ثم فى مدل تمبل فى لندن . وسرى فى دمه جرثومة الطموح الأدبى من بيئة كان فيها الأذواق أنفسهم يؤلفون الكتب . وفى أول سنة كان يدرس فيها القانون كتب « المستخفية » (١٦٩٢) التى امتدحها ادموند جروس « لمرحها ودعابتها الخفيفة » ولأنها أقدم قصة طويلة (عن العادات وآداب السلوك ؟) فى الإنجليزية (١٨) » ، ولكن صمويل جونسون قال عنها « خير لى أن أمتدحها من أن أقرأها(١٩) » ، وحظى كونجريف بالشهرة من

قفزة بملهاته الأولى « الأعزب المجوز » ١٦٩٣ ، التى أقسم دريدن ـ وهو عميد الأدب المعترف به فى انجلترا فى هاتيك الأيام ـ بأنه لم ير قط خيرا منها ، باكورة للعمل فى مجال الرواية ومذكان كونجريف غير واثق من أن الرجل الماجد ينبغى أن يكتب للمسرح ، فأنه اعتذر بأنه إنما كتبها « لمجرد التسلية فى فترة إبلال بطىء من علة ألمت به » ، ومن هنا قال كولييز « ليس لى أن أتساءل ماذا كانت علته ، ولكن لا بد أنها كانت خطيرة جدا ، وأسوأ من العلاج(٢٠) » . أما هاليفاكس فإنه اتفق فى الرأى مع دريدن ، حتى أنه عين كونجريف فى منصبين يدران عليه دخلا كافيا يستطيع بفضله أن يحتفظ بمكانته ، سيدا كريما ، وأن يعمل فى عالم المسرح .

ولم تلق روايته الثانية « التاجر المخادع » (١٦٩٤) ترحيبا كبيراً ، ولكن اطراء دريدن ، الذى وضع كونجرف مع سكسبير فى مرتبة سواء ، شد من أزر المؤلف الناشىء ، وفى ١٦٩٥ ، فى سن الخامسة والعشرين ، عاد إلى خشبة المسرح برواية « الحب للحب » التى فاق نجاحها كل ما عرف من نجاح . ولكن كولييز شجب الرواية واتهمها بأنها تؤيد الفسق والفجور وتشجعهما ، وبلغ رد كونجريف عليه من التفاهة حدا انقطع معه عن المسرح طيلة ثلاثة أعوام وعندما عاد إليه برواية « طريق الدنيا » (١٧٠٠) كان قد أفاد من النقد القاسى ، وأوضح أن الموهبة لاتعتمد على قلب الوصايا العشر رأسا على عقب . وكان فى هذه الرواية التى قال عنها سوينبرن المغالى أنها « التحفة التى لا نظير لها والتى لا تدانيها رواية أخرى فى روائع الملهاة الإنجليزية(٢١) » ، نقول كان فيها بعض أخطاء المسرحية فى عصر عودة الملكية ، ولكن ليس فيها شىء من رذائلها ، . وقد ترهقنا عند قراءتها بظرفها المازح الساخر ، وتذكرنا بالتلاعب السخيف بالألفاظ فى أعمال سكسبير الأولى ، ولكن إذا مثلت (ونطق بها بترتون ومسز بريسجيردل كما حدث فى أول عرض لها) ، فلربما كانت أمتعتنا بما فيها من حيوية وتألق

يقول وتوود « أعرف سيدة تحب الكلام بلا إنقطاع ، ولا تترك أثراً حسناً(٢٢) » وحبكة الرواية بالغة التعقيد ، وقد تتذمر من طول الوقت المطلوب لفهم شجارات ومشروعات الشخوص التافهه الطائشة ، وحل العقدة لايعدو أن يكون سخفا لاحد له . ولكن فى الرواية بعض تهذيب فى اللغة وفى الدعابه ، وتفكير لطيف (ولو أنه غير عميق أبداً) ، مما يمكن أن يدخل السرور على الذهن غير المتعجل ، وليس فيها سخرية لاذعة ، كما هو الحال فى مسرحيات فانبرو ، بل فيها تهكم مهذب رقيق ؛ تسرب من قصر فرساى إلى قصر هويتهول وإلى البلاط فى فترة عودة الملكية . وفى الرواية خلق الشخصيات الروائية وتصوير خصائصها . فالبطل ، ميرابل شخص غير جذاب ، ولكنه نابض بالحياة ، صياد للتركات والثروات . وجدير بالذكر أنه يسعى للزواج من ميللامانت ، بدلا من إغرائها . ولكن فيها ثروة تساوى اثنى عشر زانيا ، وهى أجمل ما أبدع كونجريف ، ماجنة عابثة تريد ألف عاشق ، وتود الهيام بها لمدى الحياة ، من أجل مفاتن أو جمال لن يدوم إلا لسنوات عشر ، وترتضى الزواج ولكن بشروط :

ميللامانت : ... لاشك يامبرابل أنى سأبقى فى الفراش فى الصباح كيفما أشاء .

ميرابل : هل من شروط أخرى تفرضينها ؟

ميللامانت : توافه : ـ أكون حرة فى تناول طعامى متى أشاء ، وأتناوله وحدى فى حجرة ملابسى ، إذا كنت متعكرة المزاج ، دون إبداء الأسباب . وألا يقتحم على أحد خلوتى . وأن أجلس « امبراطورة » وحدى إلى مائدة الشاى التى لايجوز لك أن تفكر فى الاقتراب منها قبل أن تستأذنى أولا وأخيراً حيثما كنت ينبغى عليك أن تطرق الباب قبل الدخول . تلك هى شروطى ، حتى إذا استطعت أن احتملك لمدة أطول ، فقد أتضاءل هيناً فشيئاً حتى أصبح زوجة .

ميرابل : ألست حرا أن أعرض شروطى ؟

ميللامانت : هات أقصى ما عندك ...

ميرابل : أشترط عليك أن تستمرى تحبين وجهك وتعجبين به طالما أحببته أنا أو أعجبت به ، حتى إذا ألفته أنا ، فلا تحاولى قط تشكيله من جديد .. اشترط ثانيا ، أنك إذا حملت .

ميللامانت : آه : لا تذكر شيئاً من هذا .

ميرابل : وهذا هو المفروض ، وليبارك الله فى محاولتنا

ميللامانت : هذه محاولة كريهة قبيحة :

ميرابل : إنى أعترض وأمنعك من إرتداء الملابس المحبوكة التى تشد جسمك لتحتفظى بقوامك حتى لاتشوهى ولدى ويخرج وكأن رأسه قمع سكر(٢٣) ..

وهكذا ، وتلك سفسطة سارة ، وهجاء معقول ، يمر بخفة وسرعة ، فى أمان ، على مظاهر الحياة .

وضرب كونجريف نفسه مثلا لمظاهر كثيرة ، مؤثراً التركيب على المادة ، والتنوع على الوحدة . ولم يتزوج قط ، ولكنه اختلف إلى سلسلة من العشيقات ، ولم نسمع عن ذرية أشقته أو أسعدته . وكان رفيقا لطيفا فى المقاهى والنوادى . وكانت أكرم العائلات تستقبله ببالغ الترحيب . وكان أكولا ، وكان يدهن قدميه ويعالجهما بانتظام من داء النقرس . وعندما زاره فولتير ١٧٢٦ استنكر كونجريف إطراء الشاعر الفرنسى لرواياته ، وأبدى عدم اكتراثه لها ، على أنها توافه لاتستحق الذكر ، وطلب إلى فولتير أن يعتبره مجرد رجل مهذب . عندئذ أجاب فولتير (طبقا لروايته) « لو كان الأمر كذلك ، وأنك مجرد رجل مهذب ، لما جئت لأراك(٢٤) » .

وفى ١٧٢٨ ، فى رحلة للاستشفاء بالمياه المعدنية فى باث ، انقلبت عربة كونجرف ، وظل يعانى من بعض إصابات باطنية حتى وافته المنية فى ١٩ يناير ١٧٢٩ . ودفن فى كنيسة وستمنستر . وفى وصيته ترك مائتى جنيه لمسز بريسجيردل التى كانت تقاسمه الفقر فى شيخوختها ، أما معظم الضيعة ،

أى نحو عشرة آلاف جنيه ، فقد أوصى به لدوقة مالبرو الثانية البالغة الثراء ، ومضيفته الأثيرة لديه ، فحولت المال إلى عقد من اللالىء . وكانت تضع على الدوام ، فى المكان الذى اعتاد الشاعر أن يجلس فيه إلى مائدتها ، تمثالا من العاج والشمع تدهن قدميه وتعالجهما بانتظام من النقرس(٢٥) .

وقبل موت كونجرف بزمن طويل ، كان المسرح الإنجليزى قد شرع يطهر نفسه ، حيث أمر وليم الثالث مدير للملاهى والمسارح أن يمارس بشكل أشد صرامة ، سلطته فى رقابة الروايات أو منع عرضها . وعززت موجة من الاستياء فى الرأى العام هذه الرقابة . وحرم قانون أصدرته الملكة آن إرتداء السيدات للأقنعة فى المسرح ، وقاطعت النساء اللائى حرمن هذا التستر ، الروايات المجردة من الاحتشام والوقار على وجه اليقين(٢٦) . واتفق سويفت مع الأساقفة على أن مسرح لندن وصمة فى جبين الخلق الانجليزى . وعرض ستيل روايته « العشاق الشاعرون بالاثم » (١٧٢٢) على أنها مسرحية أخلاقية . ونافس أديسون وقار للأساة الفرنسية وجلالها فى مسرحيته « كاتو » (١٧١٣) . وثمة علامة أقدم من هذا ، على التغيير الذى حدث فى المسرح ، ظهرت فى أسلوب رد دريدن على كوليير ، حيث أحس دريدن أن الكاهن غالبا ماحمل على كتاب المسرح دون وجه حق ، وأنه « فى كثير من المواضع .. فسر كلماتى بأنها تجديف وفجور ، وهى بريئة من هذا كله » ، ولكنه أضاف :

لن أتحدث كثيرا عن مستر كوليير لأنه اتهمنى فى شياء كثيرة ، وله فى هذا كل الحق . واعترفت بذنبى فى كل الأفكار والتعبيرات التى أوردتها والتى يمكن أن توصم بحق بالفحش أو الدنس أو مجافاة الأخلاق الكريمة ، ولابد من سحبها . فإذا كان يناصبنى العداء ، فقد كتب له الانتصار على . أما إذا كان صديقا ، حيث أتى لم أهيىء له فرصة خاصة ليكون غير ذلك ، (لم أسىء إليه إساءة شخصيه) ، فإنه سيسر بأنى ندمت(٢٧) .

٣ - جون دريدن ١٦٣١ - ١٧٠٠

كان أبوه من صغار ملاك الأرض ، يمتلك ضيعة متواضعة فى نورثمبتونشير وأرسل إلى مدرسة وستمنستر التى علمه فيها ، هو ورفيق دراسته جون لوك ، الأستاذ الضليع ريتشارد بزبى Buzby كثيرا من اللاتينية والنظام والانضباط . وهناك حصل على منحة دراسية مكنته من الذهاب إلى ترنتى كولدج فى كمبردج . وفى العام الذى حصل فيه على الدرجة الجامعية مات أبوه (١٦٥٤) وورث جون ، بصفته أكبر الأبناء البالغ عددهم أربعة عشر ، الضيعة التى كانت تدر ستين جنيها فى العام . وانتقل إلى لندن وحاول عن طريق الشعر أن يضيف شيئا إلى دخله ، احتيالا على العيش . وفى ١٦٥٩ نشر « مقطوعات شعرية بطولية » تخليدا لذكرى كرومول — وهو شعر تافه غير ذى قيمة بشكل ملحوظ من شاعر فى التاسعة والعشرين من عمره . والحق أن دريدن نضج فى بطء ، وكأنه رجل يتخطى فى جهد جهيد مائة عقبة ليرقى مدارج الثراء فى نجاح . وبعد ذلك بعام واحد هلل الشاعر لعودة الملكية فى قصيدته « عودة النجم » ، التى قارن فيها نجمة شارل الثانى بنجمة بيت لحم ، وما كاد أحد يتجزأ على اتهام دريدن بالتقلب ، لأن كل الشعراء تقريبا — عدا ملتون — ولوا ظهورهم إلى البيوريتانية وولوها شطر الملكية مع تغيير بارع لأساليبهم .

ولكن دريدن كان أشد اهتماما بالمسرح منه بمجرد نظم الشعر ، حيث أثرى الكتاب المسرحيون على حين حالف البؤس والشقاء الشعراء الجدد . إن دريدن لم يكن به ميل إلى المسرحية ، ولكنه كان يتطلع إلى الحصول على لقمة العيش بانتظام . وحاول كتابة الملهاة فأخرج « زير النساء الطائش » (١٦٦٣) التى وصمها بيبز بأنها « أحقر شىء رأيته فى حياتى تقريبا (٢٨) » . وفى أول ديسمبر ١٦٦٣ تزوج دريدن من ليدى اليزابث هوارد ابنة إرل بيركشير ، وأشرأبت الأعناق دهشا من سيدة ذات مكانة وثراء تتزوج من

عشر ، ولكنها كانت فى سن الخامسة والعشرين ، وفى خطر من فوات الأوان ، كما كان أخوها سير روبرت هوارد للتلهف على التأليف والكتابة ، قد ضمن تعاون دريدن معه فى رواية « الملكة الهندية » التى أخرجاها ١٦٦٤ ، فى مشاهد بالغة البذخ ، مع نجاح عظيم .

وحددت هذه المسرحية « للأساة » طورا فى تاريخ الأدب ، حيث تخلت عن الشعر المرسل الذى كان سائدا فى عصر اليزابيث ، واستخدمت المقاطع للقفاة ذات البيتين اللذين يتكون كل منهما من خمس تفاعيل ، أسلوبا منتظما لها . وكان لورد أورى قد تأثر بحلاوة واتساق القافية فى الأساة ، وأدخل هذا الأسلوب فى رواياته . وعاد دريدن إلى الشعر المرسل بعد ١٦٧٥ ، معترفا بأن القافية تفضى إلى تعويق سيل الكلام والتفكير . ولو أنه لقى عناء أكثر فى نظم الشعر لأصبح شاعرا أعظم مما كان .

وواصل نجاحه التعاونى بعمل مستقل ، وهو « الامبراطور الهندى » (١٦٦٥) ، وكان مونتزوما بطل الرواية . وما كاد يجد لمسرحيته مكانا على المسرح الانجليزى حتى داهم الطاعون لندن فأغلقت المسارح أبوابها لمدة عام . ولما زال كابوس الطاعون والحريق احتفل دريدن بخروج انجلترا من هـــذه المحنة المثلثة — الطاعون والحريق ثم الحرب — بقصيدة « سنة العجائب » (١٦٦٦) وهى مكونة من ٣٠٤ مقاطع رباعية الأبيات ، تتأرجح بين الوصف الرائع (المقاطع ٢١٢ — ٢٨٢) والتفاهة الصبيانية (مثل المقطع ٢٩) ولما فتحت المسارح أبوابها من جديد فى ١٦٦٦ عجل دريدن بالعودة إلى المسرحية . ولم ينتج حتى ١٦٨١ غير الروايات . وتميل مأسياته إلى أن تكون كلاما منمقا رنانا طنانا ، ولكنها بدت لأعين معاصريه أسمى منزلة من مأسيات شكسبير(٢٩) — ولما انضم دريدن إلى دافنانت فى إعادة صياغة « العاصفة » كانت النتيجة بإجماع المشتركين فيها أن الصياغة الجديدة تنطوى على تحسين كبير للأصل . وربما اتفقت معهم « شركة الملكية » فى هذا الرأى لأنها كلفت دريدن بتزويدها بثلاث روايات فى السنة مقابل

حصة فى الأرباح التى بلغت ٣٥٠ جنيها فى العام . أما ملهيات دريدن ، على الرغم من أنها داعرة فاحشة مثل غيرها ، فإنها لاقت نجاحا أقل من نجاح مأسياته السبع والعشرين ، لأنه فى هذه الأخيرة استطاع أن يثير اهتمام الرأى العام فى الدنيا الجديدة والهمجيين البدائيين المدهشين فيها ، وهكذا يقول المنصور فى « فتح غرناطة » .

« أنا حر طليق مثلما خلقت الطبيعة الإنسان لأول مرة ، قبل أن يطور قانون الاسترقاق الحقير ، حين هام النبلاء المتوحشون على وجوههم فى الغابات » .

وربما كان نجاح هذه الرواية بالإضافة إلى ما تضمنته رواية « سنة العجائب » من مديح منمق لشارل الثانى ، هو الذى كسب لدريدن منصب مؤرخ الملك وشاعر التاج (١٦٧٠) . وبلغ دخله السنوى آنذاك ألف جنيه فى المتوسط .

وفى خاتمة القسم الثانى من « فتح غرناطة » زعم دريدن تفوق مسرحية فترة عودة الملكية على المسرحية فى عصر اليزابيث . وذهب منافسوه ، على حين قدروا له هذه التحية والمجاملة ، إلى القول بأن فى هذا اطراء مغاليا لمسرحياته . ولم يشارك المفكرون فى المدينة جمهور المسرح إعجابه وتذوقه للغة الطنانة الرنانة المسرفة فى مأسيات دريدن ، وأصدر دوق بكنجهام بالاشتراك مع آخرين فى ١٦٧١ هجاء مرحا تحت عنوان « التجربة » سخر كثيرا من المستحيلات والحماقات واللغة الطنانة للنمقة فى المأسيات المعاصرة ، وبخاصة ما كتبها دريدن . وأحس الشاعر بأنها لطمه له ، ولكنه كظم غيظه لمدة عشرة أعوام . وبعدها شهر بالدوق بكنجهام أيما تشهير فى شخصية « زمرى » فى أقوى أبيات رواية « أبشالوم وآخيتوفل » .

وفى الوقت نفسه عملت دراسته لشكسبير على تحسين فنه . وفى أروع مأسياته (كله من أجل الحب) (١٦٧٨) تحول من راسين والقافية إلى

شكسبير والشعر للرسل . وأفرغ كل جهده وبراعته في أن يبارى ما كان منه فى عصر اليزابث ، بصفة عامة ، وعرض فى ثوب جديد قصة أنطونيو وكليوبترة التى فقدت الدنيا من أجل قصة غرام قصيرة . ولو أن الرواية القديمة لم توجد لحظيت رواية دريدن بثناء وإعجاب أكبر ، ففى مواضع كثيرة منها ترتفع من الكلام الشديد البساطة إلى الشعور النبيل المكظوم ، كما يتمثل فى قدوم أو كتافيا إلى أنطونيو لتعرض عليه صفح أو غسطى عنه(٣٠) . ورواية دريدن محكمة فى ايجاز ، بقصد مراعاة الوحدات ، ولكنه بتضييق الحدث فى أزمة واحدة فى مكان واحد ثلاثة أيام ، اختزل الفكرة الرئيسية البطولية إلى قصة غرام ، وضيع المشهد الكبير الذى رأى فى « أنطونيو وكليوبترة » (لشكسبير) أن هذه القصة الغرامية ليست إلا جزءا من الأحداث التى هزت عالم البحر المتوسط وشكلته .

وأكثر الجوانب امتاعا وتشويقا اليوم فى مسرحيات دريدن هى المقدمات التى قدمها بها مطبوعة ، والأبحاث التى شرح فيها وجهات نظره فى الفن المسرحى . وكان كورنى قد ضرب له المثل ، ولكن دريدن جعل منه مجالا لنثر رائع . وإنا إذ نمر مرور الكرام بهذه الأبحاث الموجزة وهذه الحوادث القوية ، لنلمح أن عصر الخلق والابداع فى الأدب الإنجليزى كان يعبر إلى عصر النقد الذى قد يبلغ ذروته فى بوب . ولكن اجلالنا لتفكير دريدن وعقليته يزداد إذ نراه يسير فى رشاقة ورفق غور أسلوب المسرحية ومعالجة تفاصيلها ، وفن الشعر ، ويقارن فى مقدرة فائقة على التحييز والمقارنة ، بين المسرحين الفرنسى والإنجليزى . وانك لترى فى هذه المقالات والبحوث أن الالتواء المثير فى النثر فى عصر اليزابث ، والجمل الطنانة المتراكمة عند ملتون ، كل أولئك يفسح الطريق لأسلوب أبسط وأسلس وأكثر تنظيما ومنهجية ، أسلوب خلا من التراكيب ، اللاتينية ، وزاده صقلا التعرف على الأدب الفرنسى ، لم يجار الإباقة الفرنسية كل المجاراة قط ، ولكنه أخرج إلى القرن الثامن عشر — قرن النثر — نماذج

من كلام يتميز بالصفاء والروعة والسلاسة وسحر البيان ، وعدم التكلف والقوة . وهنا اتخذت المقالة الإنجليزية شكلها ، وبدأ العصر الكلاسيكى (النموذجى الممتاز) للأدب الإنجليزى .

ولكن إذا كانت مقالات دريدن تبدو الآن أعلى مكانة من الروايات التى كانت سببا فى كتابة المقالات ، فإنه فى الهجاء ساد عصره وأرهبه . وربما وقع حادث أطلق لسانه اللاذع . ذلك أنه فى ١٦٧٩ وزع جون شفيلد إرل ملجريف نشرة مخطوطة بعنوان « مقال فى الهجاء » لانحمل اسم كاتبها ، هاجمت إرل روشستر ، ودوقة بورتسموث (لويزدى كيروال) ، بلاط شارل الثانى بصفه عامه . واتجه الظن خطأ إلى أن كاتب المقال هو دريدن الذى كان آنذاك يحصل على معظم دخله من الملك . وفى ليلة ١٨ ديسمبر فى « زقاق روز — كوفنت جاردن » هجم على دريدن نفر من السوقه وأوسعوه ضربا بالهراوات ، والمفروض أن روشستر استأجرهم لهذا الغرض ، ولو أن هذا لم يثبت على سبيل اليقين . وكان دريدن رجلا ودودا كريما مستعدا لمد يد المعونة وكيل المديح . ولكن نجاحه وغروره وافراطه فى التحدث عن نفسه وتوكيداته الخلافية ، كل أولئك جلب عليه عداوات كثيرة . واحتمل دريدن لبعض الوقت حملاتهم عليه ،دون رد عانى منه ، بل أن « كمين زقاق روز » لم يلق استجابة سريعة من قلمه . ولكنه فى ١٦٨١ جمع عديدا من اعدائه فى مرجل واحد وسلقهم بالسنة حداد ، فى ألذع هجاء عرف فى اللغة الإنجليزية .

وتلك هى السنة التى حاول فيها شافستبرى أن يقوم بثورة ليخلف ابن شارل الثانى غيرالشرعى أباه على العرش وعندما ظهر القسم الأول من قصيدة « أبشالوم وأخيتوفل » كان شافتسبرى على وشك أن يقدم للمحاكمه بتهمة الخيانة العظمى . وانحاز هجاء دريدن إلى جانب الملك ، وربما كان بإيعاز منه(٣١) . وهزأ الشاعر من شافتسبرى فى شخص أخيتوفل الذى يحرض

أبشالوم (وهو درق مونموث) على الثورة ضد أبيه داود (شارل الثانى). ولما كان داود وشارل كلاهما قد أحبا عددا من النساء ، فان القصيدة تبدأ ببحث فى قيمة تعدد الزوجات :

« فى عهد التقى والورع ، قبل ظهور الكهنة وأساليبهم ، وقبل أن يصموا تعدد الزوجات بأنه خطيئة ، وحين تكاثر الإنسان بتعدد زوجاته وقبل أن يقتصر الواحد على واحدة بفكل بغيض . وحين استحثت الطبيعة — ولم يمنع أى قانون — على معاشرة الخليلات والزوجات دون تمييز ، وحين ماش ملك بنى اسرائيل، برضا السماء، على الزوجات والاماء من مختلف الأنحاء ، فى قوة وحيوية ، ونشر صورة خالقه على أوسع نطاق على الأرض ، بأسره » .

ويبتهج داود بجمال ابنه أبشالوم . وكان مونموث ، حتى قيام الثورة ، قرة عين أبيه الملك السعيد (شارل الثانى) ، أما بنو اسرائيل فهم الإنجليز (فى القصيدة) :

جنس عنيد متقلب متذمر ، أرهق النعمة الإلهيه إلى آخر مداها ، شعب الله المدلل الذى انغمس فى الملذات والشهوات ، والذى لم يستطع أن يحكمه ملك أو يرضيه إله(٣٢) .

وأستروفل هو رئيس شياطين الخيانة ، وتتحقق لندن لفورها أنه شافتسبرى :

وكان على رأس هؤلاء جميعا اختيوفل الكاذب ، وهو اسم ملعون كريه على مر العصور ، أهل لكل التدابير الخفية والمشورات الملتوية ، ذكى جرىء مضطرب الحواس ، قلق ، لايثبت على مبدأ ولا يستقر فى مكان ، غير راض إذا تملك وتسلط ، ضائق صدره إذا تجرد من سلطانه ، يحمل بين جنبيه نفسا محمومة مضطرمة انهكت وأبلت جسم القزم وهى تشق طريقها ضاق بها جسده الهزيل . قائد جسور لأخطر الأعمال اليائسة ، يطرب للأخطار

حين ترتفع الأمواج . أنه يلتمس الأعاصير والزوابع ، لأنه لا يحب الهدوء . يدنى سفيلته من الرمال بفطنته وذكائه . يقينا أن ذوى المواهب العظيمه قريبون من الجنون ولا يفصله عنهم إلا حواجز رقيقة . وإلا ، لماذا — وهو ذو الثراء العريض والمناصب الرفيعة — يضن على شيخوخته بما تحتاج من راحة ودعة ؟ .. لا يقيم على ود ولا يخلص فى صداقة ، عنيد حقود فى عدائه وبغضه ، مصمم على أن يدمر الدولة أو يحكمها هو(٣٣) .

ثم يجىء دور الانتقام من دوق بكنجهام و « التجربة » :

ويقف على رأس هؤلاء (العصاة الثائرين) زمرى ، وهو رجل متعدد الجوانب ، حتى إنك لا تحسبه واحدا ، بل صورة مصغرة لكل بنى البشر ، جامد الرأى ، يجانى الصواب دائما . كان يندفع فى كل أعماله ، ولكنه لا يثبت على حال . وخلال فترة قصيرة واحد ، كان الكيميائى والمازف ، ورجل الدولة والمهرج . ثم ينصرف بكليته إلى النساء والتصوير ، والشعر والشراب ، فضلا عن عشرة آلاف نزوة تموت فى المهد .. وكان تبديد المال فنا خاصا برع فيه . أغدق على كل الناس إلا من يستحقون المكافأة ، أفقره الحمقى المهرجون الذين اكتشفهم بعد فوات الأوان . وحظى هو بالمرح ، وحصلوا هم على ماله وضيعته(٣٤) .

ولم تر انجلترا قط من قبل مثل هذا الهجاء اللاذع الذى لا يرحم ، الذى يركز كل التشويه والتجريح فى سطر واحد ، ويترك جثة ممزقة مهشمة فوق كل صفحة . وبيعت القصيدة بالمئات خارج نفس المحكمة التى كان يحاكم فيها شافتسبرى ، مخاطراً بحياته . وقضت المحكمة ببراءته فصك أشياعه الأحرار (الهويج) « ميدالية » تمجيدا له ، وانبرى عدد من الشعراء والكتاب ينتزعهم توماس شادويل لإصدار ردود ظافرة على الرجل الذى أيقنوا أنه باع عقله ، ولسانه السليط وبيانه الكاوى إلى الملك . وعاود دريدن الكرة بهجاء آخر ، « الميدالية » (مارس ١٦٨٢) سلق فيه شادويل ، بصفة خاصة ، فى قصيدة « ماكفلكنو » (أكتوبر) . وهنا كان الدم

والقدح أسكى وأمر ، فانحط أحيانا إلى شتائم لفظية صريحة ، لم تتميز ، مثل الهجاء السابق ، بمقاطع فاصلة تنشر السم فى دقة دون اسراف أو اسفاف .

إنا لا نستسيغ اليوم هذا اللون من « الذبح » الأدبى ولم نعد نتذوقه إلا قليلا ، وانا لنرتاب بعد قرون من الجدل والمناقشة ، فى أن هناك بعض الصدق فى كل عاطفة أو هوى ، وأن فى كل خصم أو عدو شيئا محببا . وما السياسة حتى فى أيامنا هذه إلا حرب بوسائل أخرى ، أكثر بكثير مما كانت حين كان عرش أسرة ستيوارث يترنح على حافة الثورة ، وكان الظهور إلى جانب الفريق الخاسر المنهزم قد يعنى الموت المحقق . وعلى أية حال ، فإن دريدن بذل كل الهمه ، مما أكسبه امتنان الملك ودوق يورك ، ولم ينازعه أحد آنذاك التربع على عرش مملكة الشعر . وكانوا يحجزون له — إذا قصد إلى « حانة ول will » مقعدا إلى جانب المدفأة فى الشتاء ، وفى الشرفة صيفاً ، وهناك رأى بيبز وسمع « أحاديث طريفه ذكية (٣٥) » وصورة سير والتر سكوت ، فى خيال مبدع ، وهو يدخل إلى هذه الحانة ، « رجل عجوز بدين قليلا ، ذو شعر أشيب ، يرتدى حلة سوداء بالغة الأناقة ، محبوكة الأطراف وكأنها قفاز ، تشرق فى وجهه أرق ابتسامه رأيتها فى حياتى(٣٦) » وكان الانحناء تحية لشاعر التاج والاستماع إلى رأيه فى آخر مأساة أخرجها راسين ... يعتبر ميزة ، كما كانت القبضة من علبة سعوطه شرفا كفيلا بأن يريك المتحمس الناشىء . وكان كل العطف بعينه بالنسبة لأصدقائه ، ولكن ما كان أسرعه فى كيل السباب لمنافسيه وخصومه(٣٧) (وما كان لأحد أن يبزه فى اطراء شعره . إن تملقه للملك وليدى كاسلمين ولكل أولئك الذين يجزلون له العطاء مقابل الإهداء إليهم ، جاوز الحد المألوف من الاستسلام الذليل فى مهنته فى عصره(٣٨) . ومع ذلك فإن كونجريف بادله التشجيع بمثله حين وصفه بأنه « بالغ الإنسانية والرحمة ، مستعد أن يغتفر الإساءة ، أهل للتراضى بإخلاص مع من أساء إليه(٣٩) » .

والآن ، وقد آذن جسمه بالضعف والانحلال ، بدأ الشاعر يفكر فى الدين بشكل أكثر انعطافا وميلا ، مما كان عليه فى سنى القوة والفتوة والزهو والغرور . لقد اندفعت مسرحياته وقصائد هجائه اندفاعا طارئا بين هذا وذاك من مختلف المذاهب الدينية ، أما الآن ، وقد ربط الشاعر مصيره بالمحافظين (الملكيين — التورى) ، فإنه تحول إلى الكنيسة الأنجليكانية بوصفها ركيزة للاستقرار فى انجلترا ، مستنكراً عدوان العقل المتغطرس على هذا الحرم المقدس ، ألا وهو الإيمان والعقيدة . وفى نوفمبر ١٦٨٢ أدهش أصدقاءه الدنيويين بنشره قصيدة « الدين والدنيا » دفاعا عن الكنيسة الرسمية . وبدا له أن الكتاب المقدس المنزل ، بل وكنيسة معصومة من الخطأ تفسره وتكمله ، دعامتان لاغنى عنهما للمجتمع ولسلامة العقل . وكان على علم بالخلافات وبالجدل بين الربوبيين ، وكان رده عليهم أن شكوكهم إنما تعكر صفو النظام الاجتماعى المعقد الذى لايمكن أن يدعمه إلا قانون أخلاقى تقره عقيدة دينية .

لأنه لاقيمة ولا فائدة فى تعلم النقاط الغامضة ، أما السلام العام فهو كل مايهم العالم .

وتلك حجة كان يمكن أن تخدم قضية الكنيسة الكاثوليكية أيضاً ، وتابعها دريدن إلى غايتها بتحوله إلى الكاثوليكية ١٦٨٦ . ولسنا ندرى إذا كان لاعتلاء ملك كاثوليكى العرش فى السنة السابقة ، ولتلهف الشاعر على الاستمرار فى الحصول على رواتبه — نقول لسنا ندرى إذا كان لهذا الأمر أو ذاك دخل فى هذا التحول(٤٠) . على أن دريدن على أية حال ، صب كل فنه — الشعرى ليشرح وجهة النظر الكاثوليكية فى قصيدة « الأيلة والنمرة » The Hind and The Panther (١٦٦٧) وفيها (أيلة ناصعة البياض » تدافع عن المذهب الكاثوليكى ، ضد نمرة « هى أجمل النوع المرقط » التى تمثل المذهب الأنجليكانى . وكانت صورة حيوانين من ذوات الأربع يناقشان موضوع الوجود الحقيقى فى القربان المقدس مدعاة للسخرية (٤٢) والتسخيف .

سرعان ما أثارهما ماتيو برير Prior ولورد هاليفاكس فى محاكاة تهكية تحت عنوان « الأيلة والهرة تنتقل إلى قصة فأرة القرية وفأرة المدينة » (١٦٨٧).

وفى ١٦٨٨ فرجيمس الثانى إلى فرنسا . ووجد دريدن أنه يعيش من جديد فى ظل ملك بروتستانتى ، فلزم مذهبه الجديد ، وكان أولاده الثلاثة يعملون فى روما تحت إمرة البابا . كما أن الردة إلى مذهب آخر أمر غير مقبول ، فاحتمل فى شجاعة وجلد فقدانه لمنصب شاعر التاج ولراتبه ولوظيفته « مؤرخ الملك » ، على أن التاريخ ، زاد من أحزانه ، لأنه أضفى كل هذه المناصب والشرف على شادويل الذى توجه دريدن ملكا على الهراء ، وصوره نموذجا للغباء . وعاد فى شيخوخته يكسب بقلمه قوت يومه . فكتب مزيدا من الروايات ، وترجم مختارات من تيوكريتس وهوارس وأوفيد وبرسيوس ، وأخرج الأنيادة فى شعر بطولى فى أداء غير محكم ، ولكنه سلس ، ونقل بأوزانه الشعرية الخاصة بعض أساطير هوميروس وأوفيد وبوكاشيو ، وتشوسر . وفى ١٦٩٧ وهو فى السابعة والستين نظم قصيدته المشهورة « وليمة الاسكندر Alexanders Feast » ، التى حظيت بأعظم الثناء والإطراء .

ووافته المنية فى أول مايو ١٧٠٠ ، وشهدت جنازته اضطرابا شديدا ، وتنازعت الشيع المتنافسة جثمانه ، وأخيرا ووری التراب إلى جانب تشوسر فى كنيسة وستمنستر .

ومن الصعب أن تحب هذا الشاعر ، فكل الظواهر تقول بأنه كان انتهازيا نفعيا متقلبا ، امتدح كرومول فى فترة الحماية ، وكال المديح لشارل الثانى وخليلاته ، وأثنى على البروتستانتية فى عهد ملك بروتستانتى ، وأطرى الكاثوليكية فى ظل ملك كاثوليكى ، والتمس موارد كسب المال بكل الطرق ، وجلب على نفسه عداوة كثير من الناس ، مما لا بد معه أن يكون ثمة شىء يكرهه الناس فيه . وجارى كل منافسيه فى إباحية رواياته وتحررها من كل القيود ، وفى تورعه فى شعره . وبلغت قوته فى الهجاء مبلغا يستدر العطف على ضحاياه ، مثل العطف على الشهداء وهم يحترقون على الخازوق . ولكن

لاجدال فى أنه كان أعظم الشعراء الانجليز فى جيله • وكتب معظم شعره فى المناسبات ، وقلما حفظ الزمن شعرا نظم للمناسبات . ولكن هجاءه لا يزال حيا ، لأن أحداً غيره لم يستطع أن يأتى بمثل هذا الهجاء الذى صور الشخصيات فى ازدراء قارص وسخرية لاذعة . وطور المقطع الشعرى البطولى ذا البيتين إلى درجة من الإيجـــاز المحكم والمرونة ، سيطرت على الشعر الانجليزى طيلة قرن من الزمان وكان أثره على النثر أقوى ، حيث نقاه من التراكيب المزعجة والمصطلحات الغريبة ، وضبطه على درجة ممتازة من الصفاء والسهولة . وكان معاصروه على حق حين كانوا يرهبونه أكثر مما يحبونه . ولكنهم أدركوا أن له الحق كل الحق ، بفضل قوة إرادته وبراعته فى فنه فى صناعة الأدب والكتابة ، وملكا على عرش القوافى ، فكان بن جونسون الروائى ، ودكتور صمويل جونسون الكاتب ، فى وقت معا فى عصره .

٤ — فى ثبت واحد

والآن نجمع فى قائمة غير نابضة بالحياة بعض الشخصيات الأصغر شأنا الذين أمدوا هذه الفترة بالحياة وبالأدب ، ولكنا لن نستطيع أن نمكث معهم طويلا لنتتبع مجرى حياتهم •

وأعظم قصيدة فى الجانب الوثنى من فترة عودة الملكية كانت ملحمة بيوريتانية ، ولكن أشهرها هى ملحمة هجاء ساخر ضد البيوريتانية : « هو دبراس » (١٦٦٣ — ١٦٧٨) • ذلك أن الشاب الفاجر ، صمويل بتلر ، قضى عدة سنوات مضنية فى خدمة سير صمويل لوك ، وهو مشيخى (برسبتيريان) متحمس غيور ، ضابط برتبة زعيم فى جيش كرومول ، كان مقره فى « كوبل هو » ، وهى قلعة بيوريتانيه للسياسه والعبادة • وعندما عادت الملكيه ثأر بتلر لنفسه بنشر هجاء مرح ، يصور فيه كيف أن سير هو دبراس الفارس المغوار يقود سيده صاحب الأرض « رالفو » إلى حرب

صليبية ضد الخطيئة والإثم . وتستطيع أن تحكم منذ بداية القصيدة عليها .

«حين اشتدت ثورة الغضب والحقد بين الناس لأول مرة وتشاجروا لأنهم لم يدركوا السبب ، وحين أشعلت الكلمات النابية والأحقاد والمخاوف نار الحرب بين الجماعات وجعلتهم يقتتلون كالمجانين أو المخمورين ، من أجل «السيدة : الديانة » وكأنما يقتتلون من أجل عاهرة فاجرة ... وحين أعلن نافخ البوق الإنجيلى يحيط به الرعاع ذوو الآذان الطويلة ، النفير من أجل الحرب ، ودقت طبول المنبر والكنيسة بجماع الأيدى بدلا من العصى . عندئذ غادر السيد الفارس مسكنه وامتطى صهوة جواده منزعما الركب ... وكان كثيرون من الناس يرون ، أنه كما اشتكى مونتانى من أن قطته حسبته ، وهو يداعبها ، حماراً ، فلابد أن القطة تحسب هو دبراس حماراً وأكثر من حمار ، وإنا لنسلم بأنه على الرغم مما أوتى من ذكاء شديد ، فانه يخجل من استخدامه ، وكأنما يكره أن يستنفذه ويبليه ، ولذلك لم يظهره أو لم يلبسه إلا فى أيام العطلة أو مايشابهها ، كما يرتدى الناس أحسن ملابسهم ... وكان من الملائم ، من أجل عقيدته ، أن يوفق بين علمه وذكائه ، وكان مذهبه مشيخياً صادقا متشددا ، لأنه كان من بين العصبة العنيدة من القديسين الضالين الذين يقر الناس جميعاً بأنهم المناضلون الصادقون عن الكنيسة المجاهدة الذين يبنون عقيدتهم على الرمح والمدفع ، ويحسمون كل الخلافات بمدفعية لاتخطىء المرمى ، ويثبتون صحة نظريتهم بالضربات والمكمات . الرسولية .. فرقة تتمثل أعظم تقواهم فى كراهياتهم الحمقاء الضالة ، الشاذة فرقة تحرص على الخطأ فى يوم العطلة أكثر من حرص سائر الناس على الصواب ، مجمعة على الخطايا التى فطرت عليها . تلعن أولئك الذين لايفكرون فيها(٤٣) .

وهكذا مما آلم البيوريتانيين أيما إيلام وسر الملك كل السرور . ومنح شارل المؤلف جائزة قدرها ثلثمائة جنيه . وامتدح كل الملكيين القصيدة فيما عدا بيبز الذى لم يستطع « أن يتبين موضع العبقرية فيها » ، على الرغم من أنها تعتبر الآن من أحدث طراز من الهزل والسخرية(٤٤) » وبادر بتلر

إلى الاستزادة من الكتابة (١٦٦٤ — ١٦٧٨) ، ولكن لم يعد فى جعبته سهام ، ولم تسعفه القوافى . وحل النزاع بين البروتستانت والكاثوليك محل النزاع بين الملكيين والبيوريتانيين . ونسى القوم بتلر ، وقضى نحبه مغمورا معدما (١٦٨٠) . وبعد أربعين عاما أقيمت له لوحة تذكارية فى كنيسة وستمنستر ، تحمل هذه العبارة « طلب الخبز فمنح حجرا(٤٥) » .

وخير من هذا الشعر الهزلى المعتل الوزن الذى يتصيد القوافى ، شركلاريندون الفخم فى كتابه « تاريخ الثورة » الذى ظهر فى ١٧٠٢ على — الرغم من أنه كتب فى ١٦٤٦ — ١٦٧٤ — وشهد الناس فى عهد الملكة آن مقدار العناية التى بذلت فى تأليف هذه المجلدات الثمانية ، وروعة أسلوبها ، وكيف كان تصوير الشخصيات أخاذا ، وكيف كانت روح قاضى القضاة الذى ضرب قديما ، عالية . وبالمثل لعب جلبرت بيرنت دورا ليس بهزيل فى كتابه « تاريخ زمانه » الذى لم ينشر ، بأمر منه ، إلا بعد وفاته ١٧٢٤ . أما كتابه « تاريخ إصلاح كنيسة انجلترا » (١٦٧٩ ، ١٦٨١ ، ١٧١٥) فكان عملا أضخم ، وكان ثمرة بحث طويل ، وظهر فى وقت كانت فيه انجلترا البروتستانتية تخشى إحياء الكاثوليكية . وقدم له مجلسا البرلمان كلاهما الشكر عليه . ووجد فيه الأعداء والمحررون ألفا من الأخطاء . ولكنه لا يزال يحظى بمن يشايعه وينتصر له ، وفى بعض الأحيان يكون موضع ذم وطعن . ولكنه يظل أعظم مرجع فى موضوعه ، وحاول بيرنت أن يوسع دائرة التسامح الدينى ، فكسب عداء السوقة .

وسعى ثلاثة رجال آخرين إلى تكبير الحاضر بأن يضيفوا إليه صورا من الماضى . وطاف توماس فولر Fuller بأرجاء الأرض الحبيبه متنقلا من بلد إلى بلد ، حيث جمع كتابه « تاريخ مشاهير الرجال فى انجلترا (١٦٦٢) ، وأحيا أبطاله الأموات بما روى عنهم من نكات وحكايات ودعابة وذكاء ، وبما كتب على شواهد قبورهم . وقص أنتونى وود تاريخ أكسفورد ، وجمع ثبتا حوى سير حياة خريجيها ، وللمؤلفات القيمة

التى اقتبس مهنا كثير من المؤلفين خلسة . وجمع جون أوبرى شذرات ممتعة عن نحو ٤٢٦ من مشاهير الإنجليز ، على أمل أن ينسق هذه المادة المجموعة فى تاريخ كامل ، ولكن الخمول والمنية حالتا دون طبع « سير الحياة » قبل ١٨١٣(٤٦) . وقد شجعتنا ذخائره على المضى فى طريقنا . وهناك الكولونيل (الزعيم) جون هتشنسون ، وهو بيوريتانى أيد إعدام شارل الأول ، وزج به شارل الثانى فى السجن ، وما أن أخلى سبيله حتى عاجلته المنية ، وخلدت أرملته لوسى ذكراه فى كتاب « حياة كولونيل هتشنسون » وهو كتاب لطيف رفع من مكانة صاحب السيرة . ولكن لوسى كان يعيبها الوقفات الطويلة فكانت عباراتها أحيانا تمتد إلى صحيفة كاملة أما جون آريوتنوت ، الطبيب البارع ، والصديق المخلص لسويفت وبوب والملكة آن ولكثيرين غيرهم ، فإنه انضم إلى حملة المحافظين لوقف الحرب مع فرنسا ، بأن أصدر فى ١٧١٢ سلسلة من النشرات يهجو فيها الأحرار ، ويصف شخصية خيالية هى « جون بول » الذى أصبح منذ ذاك الوقت رمزا على انجلترا . ويقول جون آريوتنوت عن جون بول :

« أنه شخص أمين شريف صريح فى التعامل مع الناس ، سريع الغضب ، جرىء ، متقلب المزاج ... إذا تعلقته ولاطفته كان سلس القياد ، إن مزاج جون يعتمد كثيرا على الهواء ، فيرق مزاجه أو يتكدر تبعا لحالة الجو . وكان جون ذكيا . يدرك مهمته تمام الإدراك ، ولكن ليس على قيد الحياة إنسان أشد منه إهمالا فى إمعان النظر فى حساباته ، ولا أكثر انخداعا بشركائه أو غلمانه أو خدمه . ذلك لأنه رقيق سمح ، مولع بالخمر واللهو والتسلية . والحق أنه لايوجد انسان أشد عناية ببيته ولا أكثر سخاء فى الانفاق من جون(٤٧) » .

وماذا عسى أن يقول سيروليم تمبل إذا وجد أنه اختزل فى فقرة من فصل بلغ الذروة بسكرتيره ؟ ربما قال — إذا سمحت له آدابه الرفيعة — إن المؤرخين أهملوه لأنه لم يحتفظ بامرأتين تطمعان فى الزواج ، حتى قضت

إحداهما نحبها ، وأنهكت الأخرى ، أو لأنه لم يبع قلمه لوزراء المحافظين استياء من الأحرار ، أو لأنه لم يغمس هذا القلم فى ذم البشر ، ولكن خدم وطنه فى هدوء بدبلوماسية ناجحة ، وفى عصر ساده الفساد والفجور ، ضرب لانجلترا مثلا صادقا غير مصطنع لحياة أسرية تزينها الحشمة والوقار . وظل لمدة سبع سنين يتودد إلى دوروثى أو زيورن التى أصبحت رسائلها الرقيقة إليه قطعا من الأدب الانجليزى (٤٨) وارتضته زوجا لها رغم معارضة أسرتيهما . وتزوجها بعد أن شوه الجدرى جمالها . ودخل تحبل معترك الحياة السياسية ، ولكنه آثر الأعمال التى نأت به عن حمى لندن ، وتجنب « العبودية المضنية التى تثير البغض والحسد ، والتى تحصى فيها الحركات والسكنات ، والتى يطلقون عليها من قبيل السخرية والاستهزاء ، السلطة والنفوذ (٤٩) » . وكان من أوائل ، من حذروا من أطماع لويس الرابع عشر التوسعية ، وكان المخطط الرئيسى للحلف الثلاثى الذى وقف فى طريق الملك الفرنسى ١٦٦٨ . وعرضت عليه الوزارة فى ١٦٧٤ و ١٦٧٧ ولكنه آثر منصبه الدبلوماسى فى لاهاى . وأدت مفاوضاته الموسومة بالحصافة والنظر الثاقب إلى زواج مارى ابنة جيمس الثانى من وليم الثالث الذى أصبح ملكا فيما بعد . وهو الزواج الذى مهد الطريق « للثورة الجليلة » . وفى ١٦٨١ اعتزل السياسة وانصرف إلى الدراسة والتأليف فى « موربارك » ، ضيعته فى « سرى » وحسبه سويفت جامدا متحفظا ، ولكن زوجة سير وليم وأخته ، كلتيهما ، أحبتاه إلى حد العبادة ، على أنه ملاك الرحمة والكياسة واللطف . وأهم أبحاثه « المعرفة قديمها وحديثها » (١٦٩٠) ، الذى رفع فيه من ذكر الأقدمين وانتقص من قدر العلم الحديث والفلسفة الحديثة ، فى شخص نيوتن وهويز وسبينوزا وليبنتز ولوك . وتصيد بنتلى الكاتب خطأ جسيما . فآوى سير وليم إلى حديقته ، وتسلى بابيقور ، ولسوف نلتقى به ثانية .

٥ ـ إيفلين وبيبز

اتفق جون ايفلين مع تمبل فى « أنه إذا دخلت الأحزاب فى الدولة وتعمقت جذورها فيها ، فمن الحمق عندئذ أن يتدخل أفاضل الرجال فى الشئون العامة (٥٠) » ولما بدأت الحرب الأهلية رأى أنه قد آن الأوان للرحيل . وغادر انجلترا فى يولية ١٦٤١ . ولكن وخز الضمير أعاده إليها فى أكتوبر ، وانضم إلى جيش الملك فى برنتفورد ليشترك فى الانسحاب فى نفس الوقت الذى وصل فيه . وبعد شهر من الخدمة فى الجيش آوى إلى ضيعة أبويه فى ووتون فى سرى . وفى ١١ نوفمبر ١٦٤٣ عبر البحر ثانية إلى القارة . وطاف على مهل بأرجاء فرنسا وإيطاليا وسويسرا وهولندة ، ثم قفل راجعا إلى فرنسا . وفى باريس تزوج من فتاة انجليزية . وتنقل لبعض الوقت بين فرنسا وانجلترا ، حتى وضعت الحرب الأهلية أوزارها ، حيث عاد إلى الوطن (٦ فبراير ١٦٥٢ . ورضا حكومة كرومول لتتركه وشأنه . وتبادل الرسائل مع شارل الثانى فى منفاه ، وفى ١٦٥٩ بذل جهدا جبارا للتعجيل بعودة الملكية . وبعد ارتقاء شارل الثانى عرش إنجلترا أصبح ايفلين شخصية مرموقة فى البلاط ، ولو أنه دمغه بالانحلال والفساد ، وشغل بعض المناصب الحكومية الصغيرة ، ولكنه فى معظم الأحوال آثر أن يغرس الأشجار ويؤلف ثلاثين كتابا فى بيته الريفى . ودون كل شىء من لوكريشس إلى سبتاى زيفى . وعجز كتابه « للبخرة » عن تنقية هواء لندن ، ولكن فى كتابه «أشجار الغابات» دعا دعوة حارة إلى إعادة تشجير انجلترا ، وحث الحكومة على غرس الأشجار فى مختلف أنحاء لندن ، التى تعد أشجارها اليوم من أعظم مفاخرها ومباهجها . أما كتابه « حياة مسز جودولفين » ، فهو مثل أعلى فى فضائل النساء وسط عربدة عودة الملكية وصخبها .

ومن ١٦٤١ إلى ٣ فبراير ١٧٠٦ ، قبل وفاته بأربعة وعشرين يوما ، دون ايفلين فى مذكراته كل ما رأى وسمع فى انجلترا أو فى القارة . وبوصفه

رجلا من ذوى المكانة لم يكن فى مقدوره أن يسجل من الخطايا أو الآراء الشخصية جداً ، مثل تلك التى تغرينا بقراءة « مذكرات » بيبز المسهبة ، ولكن وصفه لمدن أوربا ساعدنا كثيراً على اكتناه ماهية العصر . ففى مذكرات ايفلين صفحات رائعة عن « ممر سمبلون (٥١) » وكان فى بعض الأحيان يفصح عن مكنون صدره فى قطع تفيض بالحب والحنان والرقة ، مثلما كتب عن وفاة ابنه وهو فى سن الخامسة . ولم تنشر مذكرات ايفلين إلا فى ١٨١٨ .

إن إشارات ايفلين إلى بيبز فى مذكراته أدت إلى فحص المجلدات الستة المكتوبة بطريقة الاختزال ، والتى كان بيبز قد أوصى بها لكلية مجدلن فى كمبردج . وحلت رموز المذكرات التى بلغ عدد صفحاتها ٣٠١٢ بعد ثلاث سنوات من جهد شاق ، ونشرت فى ١٨٢٥ ، بعد اختصارها وتنقيتها. وهى الآن ولو أنها لم تستكمل ، تملأ أربعة مجلدات ضخمة . على أنها جعلت من بيبز شخصية من أكبر الشخصيات المعروفة فى التاريخ بالصراحة وعدم الصحة . اما من حيث الصراحة ، فمن الواضح أنه قصد أن تنشر المذكرات إذا قدر لها أن تنشر — بعد وفاته ، لا قبلها — ولهذا حوت تفاصيل كان ينبغى كتمانها فى حياته ، ولا يزال بعضها « غير قابل للنشر » . أما عدم صحتها ، فيرجع إلى أنها تتناول حقبة تقل عن عشر سنوات (١ يناير ١٦٦٠ — ٣١ مايو ١٦٦٩) من حياة بيبز ، ولم تورد سردا وافيا لعمله فى أركان حرب القوات البحرية الانجليزية ، حيث تدرج فى أعمال ازدادت أهمية من ١٦٦٠ إلى ١٦٨٩ ، وبعد وفاته بزمن طويل تذكروه وكرموه على أنه رجل إدارة قدير نشيط مجد .

وكان أبوه خياطا (ترزيا) فى لندن ، وكان ابنا صغيرا لأحد الملاك اتجه إلى العمل والتجارة لأن الإبن الأكبر ورث الضيعة طبقاً للقانون . ودخل صمويل كمبردج على منحة ، وحصل على درجتى الليسانس والاستاذية ، ولم تسجل له أية عقوبة ، إلا تأنيب علنى « لأنه شوهد يوما يحتسى الخمر

بشكل مخز » ، ومرة أخرى لأنه كتب قصة « الحب خداع » التى أعدمها فيما بعد . وفى سن الثانية والعشرين (١٦٥٥) تزوج من اليزابث سانف ميشيل ابنة أحد الهيجونوت . وفى ١٦٥٨ أجريت له عملية « الحصاة فى الكلى » ، ونجحت العملية وظل يحتفل بذكرى نجاحها سنويا بعد ذلك ، تعبيراً عن الحمد والشكر ، كما يظهر من السنوات المسجلة فى مذكراته .

وكانت هناك صلة قرابة بعيدة تربطه بسيرادوارد مونتاجو ، فعين بيبز سكرتيراً له ، (١٦٦٠) ورافقه صمويل فى الأسطول الذى قاده لإحضار شارل الثانى من المنفى . وقبل أن ينصرم هذا العام عين بيبز كاتبا للعمليات فى إدارة البحرية . فثابر على دراسة الشئون البحريه بالقدر الذى سمح له به مطاردته للنساء . ومذ كان رؤساؤه منكبين أيضاً على هذه الرياضة القديمه ، فإنه سرعان ما أصبح أكثر دراية بتفاصيل البحرية من أميرى البحر كليهما (مونتاجو ودوق يورك) ، إلى حد أنهما اعتمدا على معلوماته . وفى أثناء الحرب مع هولنده (١٦٦٥ — ١٦٦٧) نجح نجاحا مشهودا فى تموين الأسطول ، وعند تفشى الطاعون لزم عمله فى الوقت الذى فر فيه معظم موظفى الحكومة . وفى ١٦٦٨ حين حمل البرلمان على إدارة الأسطول ، وكل إلى بيبز أمر الدفاع عنها ، وبفضل خطابه الذى استمر ثلاث ساعات فى مجلس العموم برئت إدارة الأسطول تبرئه لاتستحقها . وبعد ذلك كتب بيبز لدوق يورك ثلاث مذكرات عرض فيها وجوه النقص والخلل فى هيئة البحرية ، وقد لعبت هذه المذكرات الثلاث دورا فى إصلاح الأسطول . وبذل بيبز جهدا جبارا ، وكان يصحو من نومه عادة فى الرابعة صباحا(٥٢) . ولكنه وجد أنه كان يستمين على راتبه الذى يبلغ ٣٥٠ جنيها فى العام ، بالهدايا والعمولات والمنح التى يمكن أن يسمى بعضها رشوة ، ولكنها كانت فى هاتيك الأيام اللطيفة تعتبر زيادات إضافية مشروعة . وكان رئيسه لورد مونتاجو نفسه قد أوضح له « أنه ليس مرتب أيه وظيفة هو الذى يجعل شاغلها غنيا ، ولكن فرصة الحصول على

الأموال وهو يشغلها(٥٣) .

وكل ما ارتكب بيبز من أخطاء مدون بصراحة خالصة تامة نسبيا . وليس واضحا أمام أعيننا السبب الذى من أجله احتفظ بها بمثل هذه الأمانة . إنه أخفاها فى حذر وعناية طوال حياته ، ودونها بطريقة الاختزال الخاصة به ، مستخدما ٣١٤ حرفا مختلفا ، ولم يضع ترتيبا خاصا لنشرها بعد وفاته . وواضح أنه وجد لذة ومتعة فاستعرض أنشطته اليومية والاضطرابات فى أعضاء جسمه وشجاراته الزوجية ، ومغازلاته وعبثه ، وعلاقاته النسائية الشائنة . إنه – إذا أعاد قراءة هذا السجل – بينه وبين نفسه – لا بد أن يشعر بما نشعر به نحن من رضا خفى إذا نظرنا لأنفسنا فى المرآة . وهو يروى لنا كيف أنه جعل زوجته تحلق له شعره « فوجدت فى رأسى وجسمى نحو عشرين قملة » وهذا فى إعتقادى ، أكثر مما وجدت فى هذه السنوات العشرين(٥٤) . وتعلم أن يحب زوجته ، ولكن بعد مشاجرات كثيرة ، غيظ فى بعضها غيظا ، وكثيراً ، على حد قوله ، ما أساء معاملتها ، وفى إحدى المرات « جذبها من أنفها(٥٥) » . وفى مرة أخرى « لطمتها على عينها اليسرى لطمة جعلت البائسة المسكينة تصرخ من شدة الألم ، ولكنها اهتاجت وحاولت أن تعضنى وتخدشني بأظافرها ، ولكنى تظاهرت بالخجل مما فعلت حتى أمسكت هى عن العويل(٥٦) » ووضع على عينها ضمادة ، وانصرف للقاء إحدى خليلاته . وعاد إلى البيت لتناول العشاء ، ثم غادره ، حيث لقى « زوجة باجول ، فصحبتها إلى إحدى حانات الجعة ، وهناك لاطفتها كثيراً ، ثم افترقت عنها إلى امرأة أخرى حاولت أن أعانقها وأقبلها ، ولكنها لم ترغب فى شيء من هذا ، مما ضايقنى كثيراً » .

وقد يبعث على العجب والدهشة أن يكون للرجل مثل هذه الطاقة الحيوية فاستبدل العشيقة كل بضعة شهور ، وطارد النساء حتى صددنه عنهن بالدبابيس(٥٧) . واعترف بأنه « وقع فى أسر الجمال إلى حد غريب(٥٨) » . وقال « كنت استمع فى كنيسة وستمنستر إلى العظة ، وقضيت الوقت (ساعتى

الله) محدقا النظر فى مسز بتلر(٥٩) » وكان يتطلع فى شغف خاص ولهف جارف مما يكاد يكون خيانة عظمى – إلى ليدى كاسلمين (عشيقة الملك)، ومذ وقع نظره عليها فى قصر هويتهول « استغرق فى النظر إليها(٦٠) » . ولكنه قنع بثيابها المرصوصه فى صف واحد ، وفى هذا يقول « وكان من الخير لى أن أتطلع إلى هذه الثياب(٦١) » ، فلما « عدت إلى البيت وتناولت العشاء وآويت إلى الفراش ، تخيلت أنى أغازل مسز ستيوارت (ليدى كاسلمين وأعبث معها . فى نشوة غامرة من السرور(٦٢) » . ولكن نفسه لم تهف إلى فاتنات البلاط فحسب . فقدمرت ببابه يوما مسز ديانا ، إحدى جاراته ، فجذبها « إلى البيت وصعدت بها الطابق الأعلى ، وبقيت ألهو وأعبث معها فترة طويلة(٦٣) » . وأخذ مسز لين إلى لامبث (أحد أقسام لندن) « وبعد أن سئمت رفقتها « صممت » على ألا أعود لمثل هذا ماحييت(٦٤) »وضبطته زوجته ذات مرة يعانق فتاة ، فهددت بالانفصال عنه ، فهدأ من روعها بالوعود والأيمان . وإنطلق إلى آخر عشيقاته . ذلك أنه أغوى وصيفة زوجته – ديبورا ويلت – وكان يحب أن تمشط ديبورا له شعره ، ولكن زوجته انقضت عليه أثناء مغامراته مع ديبورا . فعاد يقسم ويعد يتعهد من جديد ، وطردت الوصيفة ، وأخذ بيبز يتردد عليها وكأن زيارتها جزء من عمله اليومى .

وظلت رغبته الجنسية على حدتها حتى حين ضعف بصره . إن عادة القراءة والكتابة فى ضوء الشمعه بدأت تضعف بصره فى ١٦٦٤ . ولكن فى سنوات العسرة التى تلت ذلك ، بذل فى العمل جهدا شاقا بصفة خاصة ، على الرغم من تفاقم علته . وفى ٣١ مايودون آخر ما سجل فى مذكراته :

« وهكذا ينتهى ما أشك فى قدرتى على المضى فيه إطلاقا بنور عينى ، ألا وهو تدوين مذكراتى . ومهما تكن النتيجة فليس لى الا أن أتجلد وأحتمل . ومن ثم اعتزمت أن يدونه من حولى بطريقتهم فى الكتابة العادية ، ولذلك ينبغى أن أقنع بألا يسجل إلا ما هو صالح لأن يعرفوه

ويعرفه العالم أجمع . وإذا كان هناك شيء ـ وهو ليس بالكثير ، بعد أن ولت كل خليلاتي مع ديبورا ، وقعد بي ضعف بصري عن الاستمتاع بأية ملذات أو مسرات ـ فلا بد أن أحاول أن احتفظ في كتابي بهامش ، أضيفه فيه هنا وهناك ، بعض الملاحظات بخط يدي ، بطريقة الاختزال . وهكذا أروض نفسي على هذه الطريقة التي لاتقل مرارة عن أن أراني محمولا إلى القبر الذي يتولى الله العلي العظيم إعدادي له ، ولكل المتاعب والمشاق التي لابد أن تنتابني عندما أفقد نور عيني . صموئيل بيبز » .

وتبقى له من عمره بعد ذلك أربعه وثلاثون عاما . وظل يتعهد في عناية بالغة ما بقي له من نور عينيه ، ولم يعم بصره تماما قط ومنحه الدوق والملك أجازة طويلة انقطع فيها عن العمل ، عاد بعدها إليه . وفي ١٦٧٣ عين سكرتيرا لامارة البحر ، وفي نفس الوقت تحولت زوجته إلى الكاثوليكية . ولما وقعت مؤامرة البابا على انجلترا اعتقل بيبز وأودع سجن لندن (٢٢ مايو ١٦٧٩) للاشتباه في أن له ضلعا في مقتل جودفري . ثم دحض الإتهام واخلى سبيله بعد تسعة أشهر قضاها بين جدران المعتقل . وبقى بعيدا عن الوظيفة حتى ١٦٨٤ ، حيث أعيد سكرتيرا لإمارة البحر كما كان ، واستأنف العمل على إصلاح البحرية . ولما أصبح رئيسه (دوق يورك) ملكا على انجلترا ـ جيمس الثاني ـ كان بيبز في واقع الأمر على رأس إدارة القوات البحرية ، ولكن عندما هرب الملك جيمس إلى فرنسا ، أعيد بيبز إلى السجن ثم أفرج عنه وعاش أعوامه الأربعة عشر الأخيرة من عمره ، متقاعدا عن العمل وكأنه « مرشد البحرية العجوز » . ووافته المنية في ٢٦ مايو ١٧٠٣ ، وقد بلغ السبعين ، مكللا بالاجلال والاحترام ، مطهرا من الذنوب والآثام .

وكم كان في هذا الرجل من خلال محمودة . لقد عرفنا حبه للموسيقى ، كما أنه تابع الحركة العلمية ، وكان ضليعا في الفيزياء . وأصبح عضوا في « الجمعية الملكية » وانتخب رئيسا لها في ١٦٨٤ وكان منزهوا برجولته ، وكان يقبل

الرشوة ، وضرب خادمه حتى جرح ذراعه(٦٥) وقسا فى معاملته لزوجته ، وكان قاسقا بكل مافى هذه الكلمة من معنى ، ولكن كم كان له فى الملوك والأدواق من أسوة أخزى وأقبح فى مجال الدعارة والفجور ، ومن منا يمكن أن يتمتع بسمعة طيبة لا تشوبها شائبة إذا ترك مثل هذه المذكرات الأمينة ؟ .

٦ — دانيال ديفو : ١٦٥٩ - ١٧٣١

هناك امرأة أفلتت من يد بيبز، تستحق منا هنا الحناءة احترام فى شىء من الحذر ، بوصفها « أم القصة الطويلة » فى فترة عودة الملكية ، وأول امرأة انجليزية تعيش على قلمها . إن افرابن Aphra Behn جديرة بالذكر من عدة نواح : ولدت فى انجلترا ، وترعرعت فى أمريكا الجنوبية . وعادت إلى انجلترا فى سن الثامنة عشرة (١٦٥٨ ، وتزوجت تاجرا لندنيا من أصل هولندى . وتركت انطباعا قويا فى نفس شارل لدهائها وذكائها . وأوفدت فى مهمة سرية إلى الأراضى الوطيئة ، فقامت بها خير قيام ، ولكنها تلقت أجرا زهيدا إلى حد أنها انصرفت إلى الكتابة ، وسيلة لكسب العيش . وكتبت مسرحيات هزلية فاجرة لاقت نجاحا ملحوظا . وفى ١٦٧٨ نشرت « أورونوكو » وهى قصة « رقيق ملكى » زنجى ، وحبيبته امواندا . وكانت مزيجا أصيلا من الواقعية والرومانسية أو الخيال . وكان الطريق ممهدا أمام قصة روبنسن كروزو ، وللقصة الرومانسية .

كذلك عاش ديفو على قلمه . وكان من أكثر الأقلام تعددا للجوانب والبراعات : وكان أبوه جيمس ديفو قصابا فى لندن، شديد التمسك بمذهب البرسبيتريان . وكان من المتوقع أن يكون دانيال واعظا ، ولكنه آثر الزواج والعمل والسياسة . وأنجب سبعة أطفال ، وأصبح تاجر جوارب بالجملة . والتحق بجيش دوق مونموت فى الثورة (١٦٨٥) ، ثم انضم إلى جيش وليم فى الإطاحة بعرش جيمس الثانى وفى ١٦٩٢ أفلس وبلغت ديونه

١٧ ألفا من الجنيهات ، ثم دفع لدائنيه استحقاقاتهم كاملة تقريبا فيما بعد ، وفيما هو يكسب ويخسر . أصدر كتيبات فى طائفة من الموضوعات زاخرة بكنز مدهش من الأفكار الأصيلة . ففى مؤلفه « بحث فى المشروعات » عرض مقترحات عملية متقدمة كثيرا عن زمانه ، فى المصارف ، والتأمين ، والطرق ، ومستشفيات الأمراض العقلية ، والكليات الحربية ، والتعليم العالى للبنات . وانتقل إلى Tilbary حيث أصبح سكرتيرا لمصنع للقرميد ثم مديرا ، وفى النهاية مالكا له . ولما قدموه إلى وليم الثالث عينه فى وظيفة حكومية صغيرة ، وأيد سياسة الملك تأييدا كبيرا إلى حد اتهامه بأنه هولندى أكثر منه انجليزى ، فدافع عن نفسه فى قصيدة رائعة ، عنوانها « الإنجليزى الصميم الأصيل » (١٧٠١) ذكر فيها الإنجليز بأن الأمة كلها مختلطة الدماء والأعراق ، ولما كان هو نفسه من المنشقين فإنه فى ١٧٠٢ نشر كراسة غفلا من اسم المؤلف ، تحت عنوان « أقصر طريق مع المنشقين » استبق فيها أسلوب سويفت فى التسفيه والتسخيف عن طريق المبالغة ، وهاجم فيها اضطهاد الأنجليكانيين للمنشقين ، باستحسانه اعدام كل منشق يقوم بالوعظ ، وطرد المنشقين الذين يستمعون إليه من انجلترا . وقبض عليه فى فبراير ١٧٠٣ ؛ وحكم عليه بالغرامة والسجن وعذب فى للشهر . وأفرج عنه فى نوفمبر ، ولكن فى نفس الوقت كان مصنع القرميد قد تخرب وتوقف العمل فيه .

وكان الرجل الذى ساعد فى الإفراج عنه هو الوزير روبرت هارلى الذى تحقق من مقدرة ديفو الصحفية ، ومن الواضح أنه عقد معه اتفاقا لاستغلال قلمه ، ومن ثم إلتحق ديفو بخدمة الحكومة طيلة بقية حكم الملكة آن . وبدأ فور إطلاق سراحه فى إصدار صحيفة ذات أربع صفحات ثلاث مرات فى الأسبوع . اسمها « ريفيو » التى ظلت تظهر حتى ١٧١٣ ، وكان معظمها بقلم ديفو .

وفى عام ١٧٠٤ / ١٧٠٥ طاف ديفو بأرجاء انجلترا على ظهر جواد ،

يدعو للمستر هارلى فى الانتخابات . وفى تلك الأثناء جمع مادة كتابه « جولة فى انجلترا وويلز » . وفى ١٧٠٦ — ١٧٠٧ عمل لحساب هارلى وجودولفين جاسوسا فى اسكتلنده ، وحظيت كراساته القوية بكثير من القراء كما جلبت إليه الكثير من الأعداء . واعتقل ثانية فى ١٧١٣ وفى ١٧١٥ ، ومرة أخرى أطلق سراحه بناء على وعد بتسخير قلمه فى خدمة الحكومة .

وكان له قدرة على ابتكار كثير من الموضوعات الأدبية . وفى ١٧١٥ نشر بعض مقتطفات يفترض أن كاتبها من الكويكرز . وفى نفس السنة نشر « حروب شارل الثانى عشر » كما يرويها « استكلندى فى خدمة السويد » . وأصدر فى ١٧١٧ رسائل يظن أن كاتبها تركى ، يندد بالتعصب للمسيحى . وأسهم فى تحرير مجلة اسمها بحق الضباب « Mist » ، بتوقيع مراسلين وهميين . وقلما وقع ديفو كتاباته باسمه . وإلى جانب هذه البراعة فى تمثيل شخصيات مختلفة ، جمع ديفو سمة الاطلاع فى الجغرافيا ، وبخاصة جغرافية افريقية والأمريكتين . وظاهر أنه افتتن بكتاب وليم دامبير « رحلة جديدة حول العالم » (١٦٩٧) ، وفى احدى رحلات دامبير ألقت سفينته المسماة « الثغور الخمسة » مراسيها فى جزر جوان فرنانديز على بعد نحو أربعمائة ميل إلى الغرب من شيلى . وكان أحد البحارة الاسكتلنديين يدعى اسكندر سلكيرك قد تشاجر مع القبطان ، فطلب إليه أن يتركه فى احدى الجزر الثلاث ، على أن يزوده ببعض الحاجيات الضرورية . وبقى البحار هناك وحيدا لمدة أربعة أعوام ، حيث أعيد إلى انجلترا ، وهناك قص قصته على ريتشارد ستيل الذى كتبها فى عدد « الرجل الإنجليزى The Englishman » الصادر فى ٣ ديسمبر ١٧١٣ ، كما رواها كذلك لديفو ، وزعم أنه أعطاه بيانا مكتوبا عن مغامرته فى الغربة والوحدة(٦٦) . وحول ديفو هذه الخلاصة إلى قطعة من الأدب . وفى ١٧١٩ نشر أشهر قصة فى القصص الإنجليزى .

وألهبت « حياة روبنصن كروزو ومغامراته العجيبة المدهشة » خيال انجلترا . وظهرت منها أربع طبعات فى أربع شهور . وهنا كان مفهوم جديد للمغامرة والصراع — لاصراع الإنسان ضد الإنسان ، ولا صراع الإنسان المتحضر ضد الإنسان المتوحش . بل كفاح الإنسان ضد الطبيعة ، صراع رجل وحيد ، يتملكه خوف حقيقى ، لايجد أى عون أو مساعدة ، حتى جاء « التابع المخلص الأمين » ، وبنى حياة من المواد الخام فى الطبيعة . وتلك كانت تاريخ حضارة رجل واحد فى مجلد واحد . واعتبرها كثير من القراء تاريخا ، حيث لم ترو قط فى الأدب من قبل قصة جمعت بين مثل هذه الأشياء التى تحتمل الصدق والكذب فى مثل هذه التفاصيل التى أخذ بعضها بخناق بعض بشكل عارض . إن تمرس ديفو فى الخداع الأدبى رفعه من الصحافة إلى الفن .

وعاش ديفو فى شىء من بحبوحة العيش فى لندن ، ولكنه لم يتخل عن انتاجه الذى لايبارى . فبينما ظل يصدر الكراسات ، أخرج كتبا فى الحجم المتوسط ، تضم قصصا صغيرة . فنشر فى ١٧٢٠ « تأملات جادة فى حياة روبنصن كروزو ومغامراته المدهشة » ، « حياة ومغامرات مسز دنكان كامبل » (وهى ساحرة مشعوذة سماء بكماء) . وبعد ذلك بشهر واحد «مذاكرات فارس» «وبن ثروفاتو» وقد حسبه بت الأكبر تاريخا وبعد شهر آخر أخرج « حياة القبطان المشهور سنجلتون ومغامراته وقرصناته » وهو كتاب حوى توقعات مدهشة عن كشوف فى أفريقية . وفى ١٧٢٢ أصدر «هناء وشقاء مول فلاندرز » و « صحيفة عام الطاعون » ، و « تاريخا كولونيل جاك » ، و « الغزل الدينى » ، و « التاريخ النزيه لبيتر الكسوفتش « قيصر المسكوف الحالى » — وهذه هى المرة الثانيه التى يستبق فيها فولتير فى كتابه سير الحياة . وقصد بهذه المجلدات الضخمه أن توفر سبل العيش لأسرته ، ولكنها بفضل قوة خيال الكاتب وأسلوبه الفياض ، أصبحت أدبا . وفى « مول فلاندرز » اندس ديفو إلى عقل بغى وقلبها ، حتى أفضت إليه بقصتها بشكل يتضح معه صراحتها واخلاصها ويدعو إلى تصديقها

ولو ظاهريا ، حتى تركها فى النهاية راضيه « آمنه مطمئنه فى خير عافية » وهى فى السبعين(٦٧) . أما « صحيفه عام الطاعون » فكانت مدعمه بأدق الوقائع والحقائق والاحصاءات ، حتى اعتبرها المؤرخون تاريخا .

أما عام ١٧٢٤ فلا يثير دهشة كبيرة : ذلك أن ديفو نشر احدى أمهات قصصه « السيدة السعيدة الحظ » المعروفة باسم « روكسانا » وهى المجلد الأول من مجلدين يتناولان جولته فى ربوع جزيرة بريطانيا العظمى ، و « حياة جون شبرد » وهو يوهم بأنه مخطوطة سلمها شبرد إلى صديق له قبل إعدامه . وكانت هذه إحدى السير القصيرة المديدة التى كتبها ديفو عن حياة المجرمين ، ومهدت إحدى سير الحياة واسمها « وغد المرتفعات » (١٧٢٤) الطريق لكتاب سكوت « روب روى » كما مهدت سيرة أخرى ، هى « حياة جوناثان ويلد » الطريق أمام فيلدنج . والحق أن أى موضوع شعبى أسال قلم ديفو ، وأفاض عليه الجنيهات من خزائن ناشرى كتبه ، من ذلك « التاريخ السياسى للشيطان » (١٧٢٦) ، و « خفايا السحر » (١٧٢٠) ، و « الكشف عن أسرار الدنيا الخفية » ، أو تاريخ حقيقة الأشباح (١٧٢٧ — ١٧٢٨) أضف إلى هذا كله قصيدة فى اثنى عشر جزءا « العدل الإلهى » يدافع فيها عن الحقوق الطبيعية لكل إنسان فى الحياة وفى الحرية وفى التماس السعادة ووسط هبوط ديفو كثيراً إلى مستوى ذوق الشعب وأخيلته ، نرى أنه أسهم اسهاما مخلصاً فى أفكار جادة : مثل « التاجر الإنجليزى الكامل » (١٧٢٥ — ١٧٢٧) ، و « خطة التجارة الإنجليزية » (١٧٢٨) ، والكتاب الذى لم ينته منه « الرجل الإنجليزى الكامل » ، فإنه فى هذه الكتب جميعها قدم معلومات مفيدة ونصائح عملية ، لم تتلاءم فى كل الأحوال مع أخلاقيات الانجيل .

وقد لانحبذ أخلاقيات ديفو أو سلوكه الأدبى ، ولكننا نملك الاعجاب بعبقريته وجده ، وربما لم يشهد التاريخ قط منذ انجاب رمسيس الثانى ١٥٠ ولدا مثل وفرة ديفو فى الانتاج . والشىء الوحيد الذى يكاد لا يصدق

فى ديفو هو أنه الذى كتب كل ما كتب ، لأننا كذلك يتولانا العجب كل العجب من نوعيه عقل ديفو الذى سخرت فيه قوة الخيال وقوه الذاكرة لهذا العمل الشاق أو الجهد الجهيد ، والذى أخرج هذه الأشياء الوهمية المقبولة شكلا إلى أبعد حد فى الأدب . وأننا لنعترف بعبقرية وشجاعة رجل استطاع مع ضخامة العمل والعجلة فى انجازه ، أن يحتفظ بهذا المستوى الرفيع فى المادة والأسلوب . ففى المائتين والعشرة مجلدات التى أخرجها (إذا صدقنا ماقيل) لا يكاد المرء يقع على صحيفة واحدة مملة باهتة ، وإذا اتفق أن كان ديفو أحيانا بليدا غبياً فإنه كان يفعل ذلك عن عمد ليضيف إلى حكايته شيئاً من احتمال الصدق والكذب . ولم يبزه أحد فى بساطة السرد ووضوحه ، وفى كونه طبيعيا بعيدا عن التكليف إلى حد الاقناع . وهنا كانت عجلته ضربا من ضروب الحظ السعيد له ، حيث لم يكن لديه فسحة من الوقت للتنميق و الزخرف . وأرغمه تدريبه الصحفى ونزعته الصحفية على الإيجاز والوضوح . وكان أكبر صحفى فى زمانه بكل معانى الكلمة ، ولو أن هذا الوصف ينطبق على ستيل وأديسون وسويفت . فإن صحيفته « ريفيو » مهدت الأرض التى أنبتت فيها صحيفة « سبكتاتور » بذورا منتقاة بشكل أفضل . والحق أن هذا شرف أى شرف . ولكن أضيف إليه الشهرة العالمية الباقية على مر الدهور لقصة روبنصن كروزو ، وأثرها على قصص المغامرات ، حتى على قصة تختلف اتجاهاتها كل الاختلاف مثل « رحلات جلليفر » وإذا استثنينا مؤلف ذلك الإتهام الذكى لبنى الإنسان (سوبقت فى رحلات جلليفر) ، فإن ديفو كان أعظم عبقرية فى رجال الأدب الانجليزى فى عصر زخر بهم .

٧ ـ ستيل وأديسون

يحدد ريتشارد ستيل أكثر من أى إنسان غيره بداية عصر الانتقال فى الأدب ، من عودة الملكية إلى حكم الملكة آن . واتصف فى شبابه

بكل صفات العربدة والصخب والفجور التى سادت فترة عودة الملكية .
ولد فى دبلن ، وكان أبوه موثقا عاما (كاتب عدل) ، وتعلم فى مدرسة تشارترهاوس وأكسفورد وكان حساسا سريع الاهتياج كريما ، وبدلا من الحصول على درجته الجامعية انضم إلى جيش الحكومة فى ايرلنده ، وكان يسف فى شرب الخمر اسفافا ، ويبارز حتى يقارب أن يصرع خصمه . وأكسبته التجربة رصانة عابرة ، فبدأ يحمل على المبارزة ، وكتب مقالا عن « البطل المسيحى » (١٧٠١) جادل فى امكان أن يكون المرء سيدا ماجـــدا مهذبا « جنتلمان » مع بقائه مسيحيا . ووصف الفساد الذى ساد العصر ، وعاد بذاكرة قرائه إلى الكتاب المقدس بوصفه منبع الإيمان الصادق والخلق القويم ، وناشد الرجال أن يحترموا جمال النساء وعفتهن .

وكان فى التاسعة والعشرين ، حين وجد أنه حتى الطبقة الوسطى التى ينتمى إليها ، تتبرم به على أنه واعظ ممل ، فعقد العزم على النهوض برسالته عن طريق الروايات ، وامتدح تنديد جرمى كولاير بالخلاعة والفحش فى المسرح ، فانبرى فى سلسلة من الملهيات يدافع عن الفضيلة يشن حملات صادقة على الأوغاد . ولكن هذا الإنتاج لم يلق نجاحا . فالحق أن المسرحيات حوت مشاهد حية ودلت على ذكاء وموهبة ، ولكن جمهور النظارة اشتكوا فى حل عقدة الرواية أو فى نتيجتها ، وطالبوا باللهو والتسلية على حساب الوصايا العشر مهما كان الثمن غاليا ، على حين أن اللندنيين الحصفاء الذين قد يتعاطفون مع مشاعره ، قلما كانوا يظهرون فى المسرح . كيف الوصول إلى هؤلاء الناس ؟

وقرر ستيل أن يجرب وسيلة يواجههم بها فى المقاهى . وفى ١٢ أبريل ١٧٠٩ أخذ ورقة من صحيفة ديفو « ريفيو » وأصدر العدد الأول من صحيفة تصدر ثلاث مرات فى الأسبوع ، أطلق عليها « The Tatler » وحررها وكتب معظم مادتها تحت اسم مستعار « ايزاك بيكرستاف » . ووجهها إلى المقاهى ، حيث أعلن : —

« كل ضروب البسالة والكياسة ، والمسرات والقسابة ، تلتقون بها فى « مقهى هوايت للكاكاو » والشعر فى « مقهى ول Will » والعلم والمعرفة تحت عنوان « جريشيان » . والأنباء الخارجية والداخلية من « مقهى سان جيمس » . أما سائر الموضوعات التى ساقدمها فمن عندى أنا .

وكان مشروعا بارعا ، أثار اهتمام رواد المقاهى ، واستقى الأنباء والموضوعات من مناقشاتهم هناك ، وأتاح لريتشارد ستيل أن يعبر عن آرائه دون مقاطعة أو نزاع ، وفى العدد ٢٥ الصادر بتاريخ ٧ يونيه ١٧٠٩ ذكر أنه تلقى رسالة من « سيدة شابة ... ترثى فيها لسوء حظ . . حبيبها الذى أصيب مؤخرا بجرح أثناء المبارزة » واستطرد ستيل ليبين سخف عادة تحتم أن يدعو الشخص الذى أوذى الشخص المسىء ليضيف ضغثا إلى ابالة أو القتل إلى الإساءة ، فاذا تعنى . المبارزة أو التحدى إلا هذا !!

سيدى ، أن سلوكك الشاذ فى الليلة الماضية ، وتطاولك على فى جرأة وحرية طابت لهما نفسك ، كل هذا يدفعنى إلى أن أوجه إليك هذا الإنذار ، لأنك مغرور أحمق غير مهذب .. سألتقى بك فى هايدبارك فى ظرف ساعة ، حاملا مسدسا ، وحاول أن تصوبه إلى رأسى ، حتى ألقنك درسا فى آداب السلوك » .

وهنا كان صوت الطبقة الوسطى يسخر من الأرستقراطية . والحق أن الطبقة الوسطى أساسا هى التى زحمت المقاهى .

وفى مقالات أخرى سخر ستيل من بذخ الأرستقراطية ولغوها ومظاهرها الكاذبة وزينتها وزخارفها وملابسها ، وتوسل إلى النساء أن يرتدين الثياب البسيطة ، ويمتنعن عن الحلى والمجوهرات . فإن عقد اللؤلؤ فوق الصدر لا يضيف شيئاً إلى الصدر العاجى الجميل الذى يحمله(٦٨) » . إن رقته مع النساء كانت تتبارى مع ولعه بالخمر . وألح على القول بأنهن بحق يتمتعن بالذكاء وسلامة البنية . ولكنه إمتدح الكثير من تواضعهن وطهرهن — وتلك صفات لم تعترف بها ملهاة فترة عودة الملكية . وقال عن

إحدى الذسوة « إن حبك لها يعني أنك تتسم بالتحرر فى تعليمك » واعتبر تا كرى «أن هذه العبارة ربما كانت أرق تحية قدمت لامرأة(٦٩)». ووصف ستيل ، فى إحساس عميق ، مباهج الحياة الأسرية ، والوقع الجميل لأقدام الأطفال ، وإقرار الزوج بفضل زوجته المسنة وعرفانه لجميلها :

« إنها فى كل يوم تدخل على قلبى سرورا أكثر بكثير مما عرفت فيها أيام كنت أستمتع بجمالها وأنا فى نضارة الشباب ، إن كل لحظة فى حياتها تقدم لى أمثلة جديدة على تجاوبها مع ميولى ورغباتى ، وحسن تدبيرها بالنسبة لمواردى فى أوقات اليسر والعسر . إن وجهها أجمل بكثير مما رأيته لأول مرة . وليس ثمة ذبول فى تقاطيعه إلا إستطعت أن ألحظه منذ اللحظه التى حدث فيها نتيجه إهتمام شديد قلق بمصالحى ربما يعود على بالخير .. إن حب الزوجه أسمى بكثير من ذلك الهوى التافه الذى يسمونه عادة بهذا الاسم (الحب) ، بقدر هبوط مستوى ضحكات المهرجين العاليه الماجنه عن مستوى المرح الهادىء الرشيق عند الأماجد المهذبين(٧٠) » .

وكان ستيل قد تزوج مرتين عندما كتب هذا ، وإن رسائله إلى زوجته لهى نماذج للاخلاص والحب ، ولو أنها سرعان ما تشتمل على اعتذارات عن عدم الحضور لتناول الطعام فى البيت . إنه أخفق فى أن يكون الرجل البرجوازى الفاضل الذى كان فى نظره نموذجا للحياة ، فإنه سكر كثيراً وأنفق كثيراً وإستدان كثيراً ، وإجتاز الشوارع الجانبية ليتحاشى لقاء أصدقائه الذين أقرضوه المال . وإختفى عن الأنظار تملصا من دائنيه ومراوغة لهم ، ولكنه فى نهاية الأمر أودع السجن بسبب الدين ، وقارن تارئو صحيفته « Tatler » بين عظاته وتصرفاته . وأصدر جون دنيس نقدا لاذعا لآراء ستيل ، وتناقص عدد المشتركين فى الصحيفه واحتجبت عن الظهور فى ٢ يناير ١٧١١ ، ولكنها تحتفظ بمكانتها فى تاريخ الأدب الإنجليزى ، لان بين جنباتها بدأت الأخلاقيه الجديدة تعبر عن نفسها ، وبدأت القصه

القصيرة تأخذ شكلها الحديث ، كما طور أديسون المقالة الحديثه ، حيث بلغ بها حدا الاتقان والكمال فى صحيفه « سبكتاتور » .

وولد أديسون وستيل كلاهمـــا فى ١٦٧٢ ، وكانا صديقين منذ كانا يدرسان معا فى مدرسه تشارترهاوس . وكان والدجوزيف أديسون قسيسا أنجليكانيا ، أشرب ابنه من التقوى والورع ماقاوم به كل مساوىء ومفاسد فترة عودة الملكيه . وكسبت له براعته فى اللاتينيه منحه دراسيه . وفى سن الثانية والعشرين أعجب إرل هاليفاكس بمواهبه ، إلى حد أنه أقنع رئيس كليه ماجدلن بتحويل الشاب من سلك الكهنة إلى خدمة الحكومة . وقال هاليفاكس « يقولون عنى أنى عدو للكنيسه ، ولكنى لن أعود للإساءة إليها قط ، بعد أن أحتفظ بمستر أديسون بعيدا عنها(٧١) » ولما كانت المقدرة فى اللاتينية غير مقرونة بمعرفه اللغه الفرنسيه ، وكانت الحاجة إلى معرفة اللغة الفرنسية أساسية عند الدبلوماسيين فإن هاليفاكس خصص لأديسون ثلثمائة جنيه سنويا لينفق منها أثناء إقامته فى القارة . ولمدة عامين تجول أديسون على مهل فى أرجاء فرنسا وإيطاليا وسويسرا .

وبينما هو فى جنيف إرتقت الملكة آن عرش إنجلترا فأبعد أصدقاؤه عن مناصبهم ، وانقطع عنه راتبه . ولما لم يبق له إلا دخله الضئيل ، فإنه اشتغل معلما ومرشدا خاصا لسائح إنجليزى شاب ، وطاف معه بأنحاء سويسرا وألمانيا والمقاطعات المتحدة . ولما انتهت هذه المهمة عاد إلى لندن ١٧٠٣ ، وعاش لبعض الوقت فى فقريستره التعفف وحسن المظهر . ولكنه كان « مغناطيسا » بجذب الثراء والحظ السعيد . ذلك أنه عندما انتصر دوق مالبورو فى معركة بلنهيم فى ١٣ أغسطس ١٧٠٤ فتش جودولفين وزير الخزانة عن شخص يخلد ذكر هذا النصر شعرا . وأوصى هاليفاكس بأديسون للقيام بهذا العمل ، واستجاب الشاب الموهوب بقصيدة رنانة « الحملة » ونشرت فى نفس اليوم الذى دخل فيه مالبورو العاصمة دخول المنتصر الظافر ، وساعد نجاح القصيدة على أن توطن انجلترا نفسها على

مواصلة القتال . إن جورج وشنجطن آثر الشعر المحلق عاليا الذى كتبه أديسون على سائر القصائد . وإليك أبياتا مشهورة منها :

« ايه يا ربة القريض ، أى شعر ترين أن أنشده القوات التى أشتعلت فى نفوسها نيران الغضب ، المتراصة فى ميدان المعركة ! إنى ليخيل إلى أنى أسمع دقات الطبول الصاخبة وصيحات النصر وأنات الموتى يختلط بعضها ببعض وطلقات المدافع المرعبة تشق أجواز الفضاء ، وصيحات الحرب تدوى مثل الرعد . وهنا أثبت مالبورو العظيم بروحه العالية أنه راسخ كالطود ، لايهتز لالتحامات الجيوش للهاجمة ، وفى غمرة الضجة والفزع واليأس ، يشهد كل مناظر الحرب المروعة ، ويشرف على ساحة الموت ثابت الجنان ، يفكر فى هدوء . ويرسل المدد فى الوقت المناسب للفرق المتخاذلة ، وينفخ فى المحاربين المترددين من روحه فيدفعهم إلى الالتحام مع العدو ، ويحدد المعركة المتأرجحة أين تشتد وتحتدم . كما لو أن ملكا من السماء ، بأمر من عند الله زلزل أرض الأعداء بريح عاتية (كما حدث مؤخرا لبريطانيا الواهنة) . وفى هدوء ورصانة يسوق مالبورو العاصفة العاتية ، ويطيب نفسا بتنفيذ أمر الله سبحانه وتعالى ، فيمتطى صهوة جواده وسط الرياح الهوجاء ويقود العاصفة ويوجهها كيف يشاء » .

وحقق البيت الأخير والتشبيه الملائكى لأديسون العودة سالما إلى وظيفة حكومية تدر عليه راتبا ، بقى فيها طيلة السنوات العشر التالية . وفى ١٧٠٥ عين عضوا فى لجنة الاستئناف ، خلفا لجون لوك . وفى ١٧٠٦ وكيلا للوزارة . وفى ١٧٠٧ ألحق ببعثة هاليفاكس إلى هانوفر ، التى هيأت لأسرة هانوفر السبيل لارتقاء عرش انجلترا . وفى ١٧٠٨ اتخذ مقعده فى البرلمان ، ويفضل خدماته الجليلة احتفظ به حتى المهات . وفى ١٧٠٩ أصبح السكرتير الأول لنائب الملكة فى أيرلنده . وفى ١٧١١ أثرى إلى حد إستطاع معه أن يشترى ضيعة فى رجبى بعشرة آلاف جنيه .

إن أديسون فى أيام الرخاء لم ينس ستيل . فأنبه على أخطائه ولكنه

هيأ له منصبا حكوميا ، وأقرضه مبالغ كبيرة من المال ، وطالبه مرة واحدة أن يسددها(٧٢) . وعندما صدرت صحيفة «The Tatler» غفلا من الاسم ، لاحظ إشارة إلى فرجيل كان قد لمح بها إلى ستيل ، وفى « إيزاك بيكرستاف » عرف ثانية صديقه المترف المفلس وسرعان ما اشترك فى الصحيفة . وفى ١٧١٠ سقطت حكومة الأحرار ، وفقد ستيل وظيفته الحكومية ، وفقد أديسون كل مناصبه باستثناء عضوية لجنة الاستئناف . وإحتفلت صحيفة تاتلر بهذا العام بالاحتجاب عن الظهور . وشارك أديسون وستيل الواحد منهما الآخر آلامه وآماله ، وفى أول مارس ١٧١١ أخرجا أول عدد من أشهر الدوريات فى تاريخ الأدب الإنجليزى .

وظهرت صحيفة « سبكتايور » يومية ـ ماعدا يوم الأحد ، فى فرخ مطوى ذى أربع أو ست صفحات . وبدلا من تحديد المقالات من مراكز مختلفة . ابتدع المحرر المجهول الإسم ناديا وهميا يمثل أعضاؤه قطاعات مختلفة من دنيا الانجليز : سير روجردى كوفرلى سيد من الريف ، سير أندرو فريبورت يمثل طبقة التجار ، ويتحدث الكابتن سنترى باسم الجيش ، أما ول هنيكوم فهو الرجل العصرى المتأنق ، أما المحامى فى دار العدل فيمثل العلم والمعرفة » ويجمع مستر « سبكتاتور » نفسه بين وجهات نظرهم فى إطار من المرح اللطيف والكياسة والذكاء ، مما نفذت معه الصحيفة إلى بيوت الانجليز وقلوبهم جميعاً . وفى العدد الأول وصف مستر سبكتاتور نفسه ، حتى جعل النوادى والمقاهى تحاول الكشف عن شخصيته بالحدس والتخمين :

« قضيت سنواتى الأخيرة فى هذه المدينة حيث يرانى الناس كثيرا فى معظم الأماكن العامة ، ولو أن عدد الصفوة المختارة من الأصدقاء الذين يعرفوننى لا يجاوز الستة ، وسأتحدث عنهم فى العدد القادم بشكل أدق . ولا يكاد يوجد مكان يأوى إليه الناس بصفة عامة إلا وظهرت فيه ، فأحيانا يرونى أدس أننى فى حلقة من رجال السياسة فى « مقهى ول » ،

مصغيا بأكبر إهتمام إلى ما يدور فى هذه الاجتماعات الدورية . وأحيانا أدخن غليونى ، وعلى حين يبدو أنى غير منصت لشىء إلا سماعى البريد ، فإنى أسترق السمع إلى النقاش الذى يدور على كل مائدة فى الغرفة . وفى أمسيات الأحد أقصد إلى مقهى سان جيمس ، وانضم أحيانا إلى جماعة السياسيين الصغيرة فى الحجرة الداخلية ، بوصفى رجلا يذهب إلى هناك ليسمع ويستفيد . ووجهى كذلك معروف تمام المعرفة فى « جريفان » وفى مقهى « شجرة الكاكاو » « وفى مسارح « دروري لين » و « هاى ماركت » على حد سواء . وكانوا يحسبوننى تاجرا فى « البورصة » طيلة هذه السنوات العشر أو أكثر . وأحيانا حسبوا أنى يهودى من جماعة السماسرة الذين لا يوثق بهم فى « جوناتان » وجملة المقول إنى لاأرى حشدا من الناس إلا حشرت نفس فى زمرتهم ، ولو أنى لا أنبس بنبنت شفة إلا فى النادى الخاص بى .

وهكذا أعيش فى هذه الدنيا متفرجا ، لا واحدا من الجنس البشرى ، وبهذه الطريقه جعلت من نفسى رجل دولة وسياسة يطيل التأمل والتفكير ، وجنديا وتاجرا ، وصانعاً ماهراً ، دون أن أمارس العمل فى أى قطاع من قطاعات الحياة . كما أنى على دراية تامة بشئون الزواج والأبوة ، وأستطيع تبين وجوه الخطأ فى الإقتصاد وفى الأعمال وفى الإنحراف ، أفضل بكثير ممن يتولون هذه الأمور بأنفسهم ، لأن المتفرجين يكتشفون أخطاء يمكن ألا تقع عليها أعين المشتركين فى اللعبة . إنى لم أناصر قط حزبا فى اندفاع أو عنف . وإنى عاقد العزم على أن أقف موقف الحياد الدقيق بين الأحرار والمحافظين ، إلا إذا اضطررت إلى إعلان الإنحياز إلى أى من الفريقين بسبب تصرفات غير ودية من الفريق الآخر . وصفوة القول إنى كنت طوال حياتى « متفرجا » وتلك هى الشخصية التى أقصد ألا أحيد عنها فى هذه الصحيفة » .

ويتقدم للمشروع ، جمعت « سيكتاتور » بين الموضوعات الاجتماعية

ودراسات العادات والسلوك والأخلاق والنقد الأدبي واستعراض أحوال المسرح . وكتب أديسون سلسلة من المقالات عن ملتون أدهش بها انجلترا حين سما بقصيدة « الفردوس المفقود » فوق مرتبة « الياذة » هو ميروس » « وانيادة » فرجيل . وتجنبت المنـــاقشات الخوض فى السياسة التى تثير العداوات والتقلبات ، ولـكن ألحت — واشترك فى هذا أديسون عن طيب خاطر — على دعوه ستيل إلى الإصلاح الاجتماعى . وظهر من جديد شيء من الروح البيوريتانية هذبته المحنة ، كرد فعل للنـكسة التى اجتاحت فترة عودة الملـكية ، ولـكنها لم تعد الآن انهماكا لاهوتيا كئيبا مفزعا فى التخويف من الشيطان ومن الخطيئة المهلـكة ، بل دعوة إلى الاعتـدال والاحتشام موسومة بالتفاؤل مغلفة بالدهاء والظرف . وعلى هذا النسق بدأ عدد ١٠ نوفمبر :

« إنه لمما يبعث على الرضا والارتياح أن أرى المدينة العظيمة تلح يوما بعد يوم على طلب صحيفتى هذه . وتستقبل مقالاتى الصباحية فى جـدية واهتمام مناسبين . ويقول الناشر أن ثلاثة آلاف نسخة منها توزع يوميا بالفعل . فإذا حسبت أن النسخة الواحدة يتداولها عشرون قارئا ، وهو تقدير متواضع ، لأحصيت من المريدين ستين ألفا فى لندن ووستمنستر ، آمل أن يلحظوا الفرق بينهم وبين القطيع الطائش من أخوانهم الجهلة الغافلين ، ومذ حظيت بمثل هذا العدد الـكبير من القراء فإنى لن أدخر وسعا فى أن يكون ما أزودهم به من علم ومعرفة مقبولا ، ومن تسلية نافعا مفيداً . ولهذا أحاول أن أحمى الأخلاق بالدعابة وألطف الدعابة بالفضيلة ، لعل قرائى يشقون إذا أمكن ، عن هذا السبيل أو ذاك ، طريقهم إلى التأمل فيما يجرى حولهم كل يوم ، رغبة منى فى ألا يكون حظهم من الفضيلة قليلا عابرا ، أو مجرد ومضات متقطعة من التفـكير ، صح عزمى على أن أنعش ذاكرتهم وعقولهم بين الحين والحين ، حتى أخرجهم من ظلمات اليأس والرذيلة والحماقة التى تردى فيها هذا العصر . فإن العقل الذى يخلد إلى الدعة والراحة ولو يوما

واحداً ، يثب على الحماقات والسخافات التى لا يمكن اقتلاعها إلا بالمداومة على تثقيفه تثقيفا جادا مثابرا . ولقد قالوا عن سقراط أنه أنزل الفلسفة من السماء لتسكن بين الناس على الأرض ، وكم تهفو نفسى أن يقال عنى أنى أتيت بالفلسفة من المخابىء والمكتبات والمدارس والجامعات ، لتستقر فى النوادى والجمعيات ، وعلى موائد الشاى ، وفى المقاهى .

من أجل ذلك أوصى ، بالنسبة لتأملاتى هذه ، وبصفة خاصة ، الأسرات التى ترعى النظام والدقة فى حياتها ، أن تخصص فى كل صباح ساعة محددة لتناول الشاى والخبز والزبد ، وأنصحها جديا ، ولخيرها هى ، أن تثابر على ثراء هذه الصحيفة ، وتعتبرها جزءا من تجهيزات الشاى » .

واتجهت صحيفة « سبكتاتور » إلى النساء والرجال سواء بسواء ، فعرضت أن تعالج موضوع الحب والجنس ، وتصور « الحب الزائف أقبح وأشد فتاما من . . . الخيانة فى الصداقة أو النذالة والخسة فى التجارة وسائر الأعمال (٧٣) . وكتب أديسون يقول : « سيكون من أعظم مفاخر هذه المهمة التى أنهض بها أن تهيء هذه الصحيفة بعض الموضوعات التى يخوض فيها بعض السيدات العاقلات المفكرات على موائد الشاى (٧٤) » . وشجعت الرسائل وطبعت ، وكتب ستيل نفسه سلسلة من الرسائل التى تشكو الحرمان من الحب والأحباب ، كان بعضها موجها إلى خليلاته ، وبعضها دبجه المحررون فى أسلوب حديث جداً . وجمعت الصحيفة بين الدين والحب . وزودت باللاهوت المعتدل جيلا بدأ يتساءل عن أثر تخلخل إيمان الطبقات العليا على الأخلاق . وأهابت بالعلم أن يتابع طريقه ، ويدع الكنيسة وحدها حارسا حكيما محنكا على الأخلاق ، فإن حقوق الوجدان ومتطلبات النظام تدل على إدراك الفرد وعقله ، فهو دوما فى دور المراهقة . وخير للأخلاق ولسعادة الإنسان تقبل العقيدة القديمة فى خشوع ، وحضور صلواتها وخدماتها والالتزام بعطلاتها ، والمساعدة على خلق الجو المناسب ليوم العبادة الهادئة فى كل أبرشية .

« إنى لأجد السرور كل السرور فى يوم الأحد فى الريف ، وكم أتمنى لو أن تقديس اليوم السابع والتعطيل فيه كان مجرد نظام إنسانى ، إذن لأصبح أفضل وسيلة فكر فيها الإنسان لتهذيب الجنس البشرى وصقله وتمدينه ، ومن المؤكد أن أهل الريف سيخطون سريعا إلى نوع من المتوحشين والمتبربرين إذا لم يعودوا دوما إلى زمن محدد تجتمع فيه القرية كلها بوجوه باسمة فى أبهى حلة ليتدارس أهلها فيما بينهم مختلف الموضوعات ، وليوضح لهم ما ينبغى عليهم أداؤه من واجبات ، وليجتمعوا معا لعبادة الله « الكائن الأسمى » .

إن يوم الأحد يزيل صدأ الأسبوع كله ، لا لأنه يحيي الأفكار الدينية فى العقول . بل لأنه يجمع بين الرجال والنساء . والكل يبدو فى أحسن صورة(٧٥) » .

أما الأدب الذى كان مطية الأباحية والخلاعة طوال الأربعين عاما الماضية ، فقد انحاز الآن إلى جانب الأخلاق والإيمان . وأسهمت صحيفة سيكتاتور فى انقلاب السلوك والأسلوب الذى استبق فى عهد الملكة آن ، بقرن من الزمان ، روح أواسط العصر الفكتورى ، التى قضت بألا يحترم إلا من هم حقا جديرون بالإحترام ، وغيرت مفهوم الانجليز عن السيد الماجد « جنتلمان » من الرجل ذى اللقب الذى يحسن مغازلة النساء ، إلى المواطن المهذب الكريم النشأة . وفى « سبكتاتور » وجدت فضائل الطبقة الوسطى من يدافع عنها دفاعا مهذبا معقولا . وكان التعقل وحسن التدبير وعدم التبذير أجدى على المجتمع وأثمن لديه من أناقة الثياب وسرعة الخاطر وكان التجار سفراء الحضارة إلى الشعوب المختلفة . وكانت عائدات التجارة والصناعة عصب الحياة للدولة .

وأحرزت صحيفة سبكتاتور نجاحا ومنزلة رفيعة ليس لهما مثيل فى الصحافة الانجليزية . وكان توزيعها ضئيلا ، لا يكاد يجاوز أربعة آلاف ، ولكن تأثيرها كان عظيما إلى حد بعيد . وكان يباع من مجموعاتها المجلدة

نحو تسعة آلاف نسخة سنويا(٧٦) ، وكأنما أدركت انجلترا فعلا أنها لون من الأدب . ولكن بمرور الزمن بليت جدتها وخبا بريقها ، وبدأت شخصيات « النادى » تكرر نفسها ، وفترت حيوية الكتاب المنهوكين ونشاطهم ، وأصبحت عظاتهم تبعث السأم فى نفوس القراء . وهبط توزيع الصحيفة ، وزادت المصروفات على الايرادات نتيجة ضريبة التمغة التى فرضت ١٧١٢ . وفى ١٦ ديسمبر ١٧١٢ احتجبت الصحيفة عن الظهور . وواصل ستيل الكفاح فى صحيفة « جارديان ». وأحيا أديسون صحيفة سبكتاتور ١٧١٤ . ولم يطل عمر الصحيفتين كلتيهما ، لأن أديسون كان قد أصبح آنذاك كاتبا مسرحيا ناجحا ، وأعيدت إليه وظائفه ورواتبه الحكومية.

وفى ١٤ أبريل ١٧١٣ أخرج مسرح « دروري لين » مسرحية « كاتو » لأديسون كتب لها صديقه بوب مقدمة زاخرة بالحكم والأفكار التى عرفت عنه ، مثقلة بالوطنية الثائرة المتفائلة معا ، وأخذ ستيل على عاتقه أن يحشد لمشاهدة المسرحية كل « الأحرار » الغيورين المتحمسين ، فلم يوفق فى ذلك كل التوفيق ، ولكن « المحافظين » انضموا إلى الأحرار فى استحسان وقفة « كاتو » الأخيرة دفاعا عن « الحرية الرومانيه » (٤٦ ق. م.) وتبارت صحيفة المحافظين « اجزامنر » مع صحيفة ستيل « جارديان » فى نشوة الابتهاج والاستحسان . واستمر العرض لمدة شهر كامل مع تزايد عدد المترددين على المسرح لمشاهدتها ، حتى قال بوب « لم يكن كاتو محل إعجاب ودهشة رومه فى زمانه قدر ماهو موضع إعجاب ودهشة بريطانيا فى أيامنا هذه(٧٧). واعتبرت كاتو فى القارة أجمل مسرحية « تراجيديه » فى اللغة الانجليزية . وأعجب فولتير بالتزامها بالوحدات ، وعجب كيف أن انجلترا تطيق صبرا على شكسبير بعد مشاهدة رواية أديسون(٧٨). ويهزأ النقاد اليوم بها على أنها خطابة نافهة مضجرة ولكن أحد القراء وجد أن انتباهه مشدود حتى النهاية بفضل الحبكة المحكمة البناء وقصة الحب المدعمة بشكل بارع فى الصراع الأكبر .

وازدادت الآن شعبية أديسون إلى حد قال معه سويفت « أعتقد أنه لو فكر فى أن يختار للجلوس على العرش لكان من العسير أن يأبى عليه أحد هذه الرغبة(٧٩) » . ولكن أديسون الذى كان دوما نموذجا للاعتدال ، قنع بتعيينه وزيراً فى الحكومة ، لشئون أيرلنده آنذاك ، ثم كبير مفوضى التجارة . وكان شخصية محبوبة جداً فى النوادى ، لأن إدمانه على الشراب منعه من أن يكون « الرجل الشاذ البشع غاية البشاعة والشذوذ الذى لايحبه الناس أبدا » . ورغبة منه فى تتويج مجده وعظمته ، تزوج (١٧١٦) من كونتيسة ، ولم يكن سعيدا فى حياته مع السيدة المتجمرفة فى « هولندهاوس » فى لندن . وفى ١٧١٧ عين ثانية وزيراً ، ولكن مقدرته كانت محل نزاع وشك . وسرعان ما استقال بمعاش قدره ١٥٠٠ جنيه فى العام . وعلى الرغم من تجلده وأدبه الجم انزلق فى عراك مع أصدقائه ـ ومنهم ستيل وبوب ـ الذى هجاه بأنه متزمت اعتاد « أن يلعن الناس بالاطراء الباهت الحقير » فهو :

مثل كاتو يقدم للسناتو الهزيل القوانين ، ثم يتخذ مقعده لينعت إلى ما يكال له مد مديح(٨٠) .

وكانت خاتمة حياة ستيل أقل عظمة وجلالا من أديسون . أنه انتخب للبرلمان فى ١٧١٣ ، ولكن الغالبية التى تنتمى إلى حزب المحافظين أخرجته بتهمة أن لغته محرضة مثيرة للفتنة . وفاز حزب الأحرار فى السنة التالية ، فحظى ستيل بعدة مناصب إدارية تدر عليه مالا ، وتعادلت لفترة من الزمن موارده مع نفقاته ، ولكن ديونه طغت ، وطارده دائنوه ، وآوى إلى ضيعة زوجته فى ويلز ، وهناك وافته المنية فى أول سبتمبر ١٧٢٩ ، بعد شريكه بعشر سنين . أنهما معا : ستيل بأصالته وحيويته ونشاطه ، وأديسون بذوقه الفنى المصقول ارتفعا بالقصة القصيرة والمقال إلى آفاق جديدة من الجودة والاتقان ، وأسهما فى ابتعاث الأخلاق من جديد فى ذاك العصر ، وحددا طابع الأدب الانجليزى وشكله لمدة قرن من الزمان باستثناء العبقرية البالغه القوة والعنف فى هذا العصر .

جوناثان سويفت : ١٦٦٧ — ١٧٤٥

كان سويفت يكبر ستيل وأديسون بخمس سنين . ولكنه عمر بعد أحدهما ست عشرة سنة ، وبعد الآخر ستا وعشرين . وكان بمثابة شعلة متأججة سرت من قرن إلى قرن ، من دريدن إلى بوب . ولم يستطيع قط أن يغتفر مولده فى دبلن الذى كان طائفا مثيراً للغضب فى انجلترا . وكم كان قاسياً عليه أن يقضى أبوه نحبه قبل ولادته ، وكان الوالد قهرمان قصر الملك فى دبلن . وعهد بالطفل إلى مرضعة حملته منها إلى انجلترا ، ولم تعد به إلى أمه إلا عندما بلغ الثالثة من العمر ، وربما ولدت هذه المغامرات والمخاطر فى نفس الصبي شيئاً من قلق اليتيم . ولابد أن هذا الشعور ازداد عمقا فى نفسه ، بانتقاله إلى عم له . سرعان ما تخلص منه ، وهو فى السادسة بإلحاقه بمدرسة داخلية فى كالكنى . وفى سن الخامسه عشرة التحق بترانى كولدج فى دبلن ، حيث ظل بها سبع سنين . وشق طريقه فى الكلية بصعوبة لأنه كان مهملا فى اللاهوت بصفة خاصة . وكثيرا ما قصر وعوقب ، وذاق مرارة الفقر والحرمان عندما تعثر حظ عمه الذى تولى الانفاق عليه ، وأصيب بانهيار عصبي (١٦٨٨) . وعند موت عمه ١٦٨٩ ، وفى غمرة ثورة أيرلنده لنصرة جيمس الثانى ، هرب جوناثان إلى انجلترا ، وإلى أمه التى كانت تعيش فى ليستر على عشرين جنيها فى العام . وعلى الرغم من طول الفراق بينهما ، انسجما معا إلى حد معقول ، وتعلم كيف يحبها ، وزارها من حين إلى حين ، حتى وفاتها (١٧١٠) .

وفى أواخر عام ١٦٨٩ وجد سويفت عملا براتب قدره عشرون جنيها فى العام مع الإقامة والطعام ، سكرتيرا للسير وليم تمبل فى موربارك . وكان تمبل حينذاك فى أوج عظمته ، صديقا ومستشارا للملوك . ويجدر بنا ألا نقسو فى لومه لاخفاقه فى التعرف على العبقرية فى الشاب ذى الاثنين والعشرين ربيعا الذى جاءه ببعض اللاتينية واليونانية ، وببعض اللهجة الايرلندية مع جهل ما كر باستخدام الشوكة والملعقة وعلاقة الواحدة منهما بالأخرى

على المائدة(٨١) وكان سويفت يجلس مع كبار العاملين فى خدمه ثمبل ، إلى مائدة سيدهم(٨٢)، الذى لحظ دوما الفرق بينه وبينهم . ولكن ثمبل كان فأرسل سويفت ١٦٩٢ إلى أكسفورد ليحصل على درجه الأستاذية . وأوصى به عطوفا ، وليم الثالث خيرا ، ولكن دون جدوى .

وفى نفس الوقت كان سويفت يكتب مقطوعات شعرية من ذات البيتين. عرض بعضها على دريدن الذى قال له « ياسويفت ، يابن العم ، إنك لن تكون شاعرا أبدا » — وهى نبؤة كانت دقتها تجل عن إدراك الشاب وتقديره . وفى ١٦٩٤ ترك سويفت خدمة ثمبل ، مع توصية منه . فعاد إلى ايرلنده ، ورسم قسيسا أنجليكانيا (١٦٦٥) وعين فى وظيفة كنسية صغيرة صغيرة ذات راتب فى كلروت بالقرب من بلفاست . وهناك وقع فى غرام جين دارنج التى سماها « فارنيا » ، وعرض عليها الزواج ، ولكنها أمهلته حتى تتحسن صحتها ويزداد دخله . ولما لم يطق صبرا على هذه العزلة القاتلة فى أيرشية ريفية ، هرب من كلروت ١٦٦٩ وعاد أدراجه إلى ثمبل وظل فى خدمته حتى مات هذا الأخير .

وكان سويفت فى عامه الأول فى موربارك ، قد التقى بأستر جونسون. التى قدر لها أن تصبح « Stella » . وتناثرت بعض الشائعات بأنها نتاج شىء من طيش سير وليم ثمبل ، الذى كان نادرا . والأرجح أنها ابنة تاجر من لندن . التحقت أرملته بخدمة ليدى ثمبل . وعندما رآها سويفت لأول مرة كانت فى سن الثامنة ، تبعث على السرور والابتهاج مثل سائر البنات فى هذه السن ، ولكنها كانت أصغر من أن تثير فيه لواعج الغرام والهيام . أما الآن وهى فى الخامسة عشرة ، فقد اكتشف سويفت ، معلمها الذى ناهز التاسعه والعشرين ، أن مفاتنها تثير للشاعر البدائية لدى الكاهن المحروم ، لها عينان سوداوتان براقتان ، وشعر أسحم ، وصدر منتفخ ، « رشيقه رشاقة غير معهودة فى البشر . فى كل حركة وفى كل كلمة وفى

كل عمل » (هكذا وصفها سويفت فيما بعد) ، « وكبت كل تقاطيع وجهها في أحسن صورة(٨٣) » فكيف لاتفتن هلواز هذه معلمها أبيلاد(*) .

وعندما توفى تمبل ١٦٩٩ ترك لأستر ألف جنيه واسويفت مثلها . وبعد آمال خائبة فى الالتحاق بوظائف الحكومة ، قبل سويفت الدعوة ليكون قسيسا وسكرتيرا لدى أرل بركلى الذى كان قد عين لفوره قاضى القضاة فى أيرلنده . وعمل سكرتيرا للرحلة إلى دبلن ، ولكنه هناك فصل عن عمله . فطلب أن يعين رئيسا لكنيسة « درف » وهو منصب كان على وشك أن يشغر . ولكن السكرتير الجديد ، لقاء رشوة قدرها ألف جنيه ، خص بالوظيفة مرشحا آخر . واتهم سويفت إرل بيركلى والسكرتير كليهما ، وجها لوجه ، بأنهما « وغدان حقيران » . فعمل على تهدئته بتعيينه قسيسا فى « لاراكور » ، وهى قرية على بعد نحو عشرين ميلا من دبلن ، لايزيد شعبها على خمسة عشر شخصا . والآن فى ١٧٠٠ بلغ دخل سويفت ٢٣٠ جنيها ، وهو دخل حسبته جين وارنج كافيا لإتمام الزواج . ومهما يكن من أمر ، فقد مضت أربع سنوات على مفاتحته لها فى أمر الزواج ، وفى نفس الوقت كان قد وقعت عينه على استر . فكتب إلى جين يقول أنها إذا تزودت بقسط من التعليم يؤهلها لتكون شريكة صالحة لحياته ، وتعد بأن ترضى عن كل ما يحب ويكره ، وتخفف من متاعبه ودراسته ، فإنه يتزوجها دون نظر إلى وسامتها وجمالها أو إلى دخلها(٨٤) .

ومذ كان سويفت وحيدا فى لاراكور ، فإنه كثيرا ما تردد على دبلن . وهناك فى ١٧٠١ حصل على درجة الدكتوراه فى اللاهوت ، وبعد ذلك فى نفس العام ، دعا استر جونسون وصديقتها مسز روبرت دنجل ليحضرا ويقيما معه فى لاراكور ، فقدمتا واتخذتا مسكنا بالقرب منه . وفى أثناء تغيبه فى انجلترا شغلتا مسكنه الذى كان قد استأجره فى دبلن وكانت أستر

(*) فيلسوف ولاهوتى فرنسى القرن الحادى عشر ، تزوج تلميذته وعشيقته هلواز .

(ستيللا) تتوقع منه أن يتزوجها ، ولكنه تركها تنتظر طيلة خمسة عشر عاما ، واحتملت هى هذا الموقف الذى وضعها فيه على مضض ، وانتابها الاضطراب والكآبة . ولكن قوة شخصيته وحدة تفكيره ، أخمدتا جذوتها وكأنما وقعت تحت تأثير تنويمه المغناطيس حتى النهاية .

وتألقت حدة ذهنه بشكل مباغت حين نشر فى ١٠٧٤ فى مجلد واحد « معركة الكتب » و « حكاية حوض الاستحمام » . والأول اسهام موجز لا يستحق الذكر فى الجدل حول المزايا النسبية للأدب قديمة وحديثة . أما الثانى فهو عرض هام لفلسفة سويفت الدينية أو غير الدينية . وقال سويفت عندما أعاد قراءة كتابه هذا فى أخريات أيامه : « يا إلهى : أية عبقرية أملت على هذا الكتاب ؟(٨٥) . وأحبه كثيرا إلى حد أنه فى الطبعات التالية أتحفه بخمسين صحيفة أخرى من الهراء ، على شكل مقدمات واعتذارات . وكان يفاخر ويزهو بأن الكتاب ينم عن أصالة بالغة . ومع أن الكنيسة كانت منذ أمد بعيد قد أكدت أن المسيحية هى « رداء المسيح السليم الذى لاشية فيه » ولكن الإصلاح البروتستانتى مزقه اربا فان أحدا ـ خصوصا كارليل فى Sartor Resortus ـ لم يطعن فى القوة التى لم يسبق لها مثيل التى ردفيها سويفت كل الفلسفات والديانات إلى مجرد أردية تستخدم لستر جهلنا المرتجف أو اخفاء رغباتنا الجامحة المفضوحة :

« هل الإنسان نفسه إلا رداء بالغ الصغر أو على الأصح مجموعة كاملة من الملابس بكل زخارفها وزركشتها ؟ . أليست الديانة عباءة ، والأمانه حذاء بلى بالوحل ، وحب الذات معطفا ضيقا غاية الضيق ، والغرور قميصا ، أليس الضمير إلا سروالا (بنطلونا) يستر الخلاعة والقذارة ، ولكن من السهل نزعه لخدمه الخلاعه والقذارة كلتيهما ؟ فإذا وضعت بعض قطع القماش الرخيص أو الثمين فى موقع معين من الرداء فإننا بذلك نصنع قاضيا وحكما ومن ثم فان وضع بعض الشاش والأطلس الأسود بعضهما إلى بعض يشكل مناسب يصنع لنا أسقفا(٨٦) » .

وجرت استعارة الرداء هنا بدقة ورقة . أن بيتر (الكاثوليكية) ، ومارتن (اللوثرية والأنجليكانية)وجاك (الكلفنية) تسلموا ، ثلاثتهم ، من أبيهم وهو يحتضر ، ثلاثة أردية جديدة متماثلة (كتبا مقدسة) إلى جانب وصية توجههم كيف يلبسونها ، وتحرم عليهم إبدالها ، أو إضافة خيط واحد إليها أو انتقاص خيط واحد منها ووقع الأبناء الثلاثة فى غرام سيدات ثلاث : « دوقة المال » . أى الثراء ، و « آنسة الألقاب الفخمة » أى الطمع ، « وكونتيسة الكبرياء » أى الغرور . ولكن الأخوة الثلاث ، رغبة منهم فى إرضاء هؤلاء السيدات ، يعمدون إلى إحداث بعض التغيير فى أرديتهم الموروثة . ولما بدا لهم أن التغييرات تتعارض مع وصية أبيهم ، أعادوا تفسير الوصية بتأويلات صادرة عن علماء ومثقفين . أما بيتر فقد أراد أن يضيف حواشى وأهدابا من الفضة (البذخ البابوى) . وسرعان ما اتضح للعلماء الثقاة أن لفظة « الهدب أو الحاشية » فى الوصية تعنى عصا المكنسة الطويلة . وهكذا اختار بيتر الحواشى الفضية ، ولكنه حرم على نفسه عصا المكنسة الطويلة « السحر؟ » . وفرح البروتستانت (المحتجون) حين وجدوا أقسى الهجاء والنقد يوجه إلى بيتر : إلى شرائه تارة كبيرة (المطهر ــ مكان تطهر فيه نفوس الأبرار بعد الموت بعذاب محدود الأجل) ثم بيعه (أى المطهر) فى أجزاء متفاوتة (صكوك الغفران) للمرة بعد الأخرى ، وإلى علاجاته الناجحة الخالية من الآلام عادة (الكفارات) للديدان (أى وخزات الضمير) ــ وعلى سبيل المثال : « الامتناع عن أكل شيء بعد العشاء لمدة ثلاث ليال . وألا تخرج على الاطلاق ريحا من الجانبين دون سبب واضح(٨٧) » ، وكذلك وجه النقد إلى بيتر لابتداع « وظيفة الهمس » (أى الاعتراف) « لخير وراحة المصابين بوسواس المرض أو الذين أرهقهم المغص » و « وظيفة التأمين » (أى مزيد من الغفران) ، « المخلل البالى المشهور (الكاثوليكى) ويعنى به « الماء المقدس » ، على أنه وقاية من الضعف والانحلال . وحيث تزود بيتر بهذه الوسائل والحيل الحكيمة فإنه ينصب نفسه ممثلا للرب ، ويصف

فوق رأسه ثلاث قبعات ذات تاج عال . ويمسك فى يده بعصا يختال بها ، وإذا رغب الناس فى مصافحته ، قدم لهم « كأن كلب مدرب تدريبا جيدا » قدمه(٨٨) . ويدعو بيتر إخوته إلى الغذاء ، ولا يقدم لهم غير الخبز ، ويؤكد لهم أنه ليس خبزا بل لحما ، ويدحض اعتراضاتهم ويقول « لاقناعكما بأنكما لستما إلا شخصين أحمقين جاهلين عنيدين أصمين حقا » ، لن استخدم إلا حجة واحدة : والله إنه لحم ضأن طيب طبيعى مثل أى لحم ضأن فى « ليدنهول ماركت » ، صب الله عليكما اللعنة الأبدية إذا صدقتما غير ما أقول(٨٩) » . ويثور الأخوان ، ويستخرجان « نسخا حقيقية » من الوصية (ترجمة الكتاب المقدس باللغة الوطنية) ، ويشجبان بيتر على أنه دجال محتال . وبناء على هذا طرد بيتر أخويه من داره ، ولم يستظلا بسقفه منذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا(٩٠) » . وسرعان مادب النزاع بعد ذلك بين الأخوة : إلى أى حد ينبذون أو يغيرون من أثوابهم الموروثة . ويعتزم مارتن ، بعد ثورة غضبه الأولى ، أن يلتزم جادة الاعتدال . ويتذكر أن بيتر أخوه . أما بيتر ، فإنه على أية حال يمزق ثوبه أربا (شيع كلفنية) . ويصاب بمسات من الجنون والغيرة . ويستطرد سويفت ليصف عمليات الريح (ويقصد بها الوحى والالهام) عند العواسيين ـ نسبة إلى عولس إله الرياح « ويعنى بهم » الوعاظ الكلفنيين . ويسخر كثيرا — سخرية لا يجوز نقلها هنا ـ من ألفاظهم الأنفية الحادة ومن نظرياتهم فى القضاء والقدر ، وتقديسهم الأعمى للنصوص المقدسة(٩١) .

وإلى هنا ، لم يصب مذهب الكاتب ـ المذهب الأنجليكانى إلا اليسير من الجراح . ولكن سويفت يسترسل فى القصة ، ويغير الأثواب إلى رياح ، ومن الواضح أنه ينتهى إلى أن كل الديانات والفلسفات ـ لا لاهوتيات المنشقين فحسب ـ ليست إلا أضاليل وأوهاما كاذبة سريعة الزوال .

« إذا استعرضنا الانجازات العظيمة التى تمت فى العالم . . . مثل تكوين الامبراطوريات الجديدة عن طريق الغزو والفتح ، وابتداع ونمو مذاهب

جديدة فى الفلسفة ، واستنباط أديان جديدة ونشرها ، فلسوف نجد أن الذين قاموا بهذا كله ، ليسوا إلا أشخاصا هيأت لهم عقولهم الطبيعية أن يقوموا بانقلابات كبيرة ، بفضل غذائهم وتعليمهم ، ومزاج معين سائد ، بالإضافة إلى تأثير خاص للهواء والمناخ .. لأن عقل الإنسان المستقر فى مخه ، لابد أن ترهقه وتغمره أبخرة ورياح صاعدة من القوى والوظائف الجسدية الدنيا لتسقى المخترعات وتجعلها مثمرة(٩٢) .

ويسترسل سويفت فى تفصيل فسيولوجى لا يمكن ذكره ، لما بدا له أنه مثال رائع لا فرازات داخليه تولد أفكاراً قويه ، من ذلك « المشروع الكبير » لهنرى الرابع : ذلك أن ملك فرنسا لم يوح إليه بشن الحرب ضد آل هبسبرج ويستحثه عليها ألا تفكيره فى الإستحواذ فى طريقه على امرأة (هى شارلوت مونمورنس) التى حرك جمالها فى الملك عصارات مختلفه « صعدت إلى مخه(٩٣) » وهذا هو بالمثل ما حدث بكبار الفلاسفه الذين حكم عليهم معاصروهم بحق بأنهم « فقدوا عقولهم » :

« ومن هذا الطراز كان أبيقور ، ديوجين ، ، أبوللونيوس ، لوكريشس ، ياراسلسوس ، ديكارت ، وغيرهم ، ممن لو كانوا على قيد الحياة الآن ، .. لتعرضوا فى هذا العصر المتميز بالفهم ، لخطر واضح ، خطر فصد الدم ، والسياط ، والأغلال ، والحجرات المظلمه والقش (فى السجون) أما الآن فقد يسرنى أن أعرف كيف أنه من الميسور أن نعلل لهـــذه التصورات والأفكار ، .. دون إشارة إلى الأبخرة التى تتصاعد من القوى والوظائف الجسديه الدنيا ، حيث تلقى ظلالا معتمه على المخ ، فتقطر أو تتساقط مفاهيم لم تضع لها لغتنا الضيقه بعد أسماء غير الجنون أو الخبل(٩٤) .

ولمثل « هذا الخلل أو التحول فى المخ بفعل الأبخرة المتصاعدة والقوى والوظائف الجسديه الدنيا » يعزو سويفت كل الانقلابات أو الثورات التى حدثت فى الإمبراطوريه والفلسفه والدين(٩٥) ويخلص إلى أن كل مذاهب الفكر عبارة عن رياح من الألفاظ ، وأن الرجل العاقل لاينبغى له أن ينفذ

إلى الحقيقة الباطنة للأشياء ، بل يقنع نفسه بالسطح أى بظواهر الأشياء ، وبناء على هذا يستخدم أحد التشبيهات اللطيفة التى ينعطف إليها دائماً :

« رأيت فى الأسبوع الماضى امرأة سلخ جلدها ، ولن تصدق أنت بسهولة إلى أى حد تغير شكلها إلى أسوأ مما كانت(٩٦) » .

إن هذا الكتاب الصغير المخزى الذى وقع فى ١٣٠ صحيفة ، جعل من سويفت فى الحال « سيد الهجاء » ـ أو كما سماه فولتير : رابليه آخر فى صورة متقنة . إن القصص الرمزى أو المجازات إتسقت إتساقا حرفيا مع معتقده الأنجليكانى التقليدى . ولكن كثيراً من القراء أحسوا بأن الكاتب متشكك ، إن لم يكن ملحداً . أما رئيس الأساقفة شارب فإنه أبلغ الملكة آن أن سويفت لم يفضل الكافر بشىء كثير(٩٧) . وكان من رأى دوقة مالبورو الصديقة الحميمة للملكة ، أن سويفت :

« حول ، منذ زمن طويل ، كل الديانة إلى « قصة حوض الاستحمام » على أنها وباعها دعابة . ولكنه كان قد إستاء من أن « الأحرار » لم يكافئوه بالترقية فى الكنيسة على ما أظهر من غيرة شديدة على الدين بهزله الدنس ، ولذلك سخر الحاده ومزاحه ومرحه فى خدمة أعدائهم(٩٨) » .

كذلك نعته ستيل بأنه كافر ؛ ووصفه نوتنجهام فى مجلس العموم بأنه عالم لاهوتى « من العسير أن يشك فى أنه مسيحى(٩٩) . وكان سويفت قد قرأ هوبز ، وهى تجربة ليس من اليسير نسيانها . ذلك أن هوبز كان قد بدأ بالخوف ، وانتقل إلى المذهب المادى ، وانتهى بأن يكون « محافظا » يناصر الكنيسة الرسمية .

وكان لرجال الدين قليل من العزاء فى أن سويفت أخرج مؤلفاً فى الفلسفة :

« إن مختلف الآراء الفلسفية انتشرت فى أنحاء العالم ، وكأنها أمراض طاعون أصابت العقل ، كما نشر صندوق بندورا (*) الأوبئة التى تصيب

(*) Pandora ـ فى الأساطير اليونانية ـ أول امرأة فانية مهلكة أرسلها الآلهة =

الجسم ، مع فارق واحد ، هو أن الطاهون لم يترك شيئاً من الأمل فى القاع إن الحقيقة خافية على الناس ، قدر خفاء منابع النيل ، ولا يمكن وجودها إلا فى « بوتوبيا » (المدينة المثالية)(١٠٠) .

ومن الجائز أن سويفت ، لأنه أحس بأن الحقيقة لم تقصد للبشر ، نبذ فى إصرار شديد كل الفرق الدينية التى ادعت أن مذهبها « هو المذهب الصحيح » . وازدرى الرجال الذين زعموا — مثل بانيان وبعض الكويكرز — أنهم رأو الله أو كلموه . وانتهى ، مع هوبز ، إلى أنه ضرب من الانتحار الاجتماعى أن نترك لكل انسان الحرية فى أن يصنع عقيدته أو مذهبه بنفسه ، حيث لن تكون نتيجة ذلك إلا عاصفة هوجاء من السخافات يصبح معها « بيمارستانا » أو مستشفى للأمراض العقلية . ومن ثم عارض سويفت حرية الفكر ، على أساس أن « جمهور البشر مؤهل للطيران قدر ما هو مؤهل للتفكير (١٠١) » . واستنكر التسامح الدينى ، وظل لآخر حياته يؤيد « قانون الاختبار » الذى قضى باقصاء غير أتباع الكنيسة الرسمية عن كل الوظائف السياسية والعسكرية (١٠٢) . واتفق مع الحكام الكاثوليك واللوثريين على أنه يجب أن يكون للأمة عقيدة دينية واحدة . وحيث أنه ولد فى انجلترا ، ومذهبها الرسمى هو الأنجليكانى ، فإنه رأى أن الاتفاق العام الكامل على اعتناق هذا المذهب أمر لا غنى له عنه لعملية تمدين الانجليز ونشر سويفت فى ١٧٠٨ بعض القطع : « أحاسيس رجل يتبع كنيسة انجلترا » ، « والدليل على أن الغاء المسيحية فى انجلترا قد يستتبع بعض المتاعب والمشاكل وللزعجات « وكان آنذاك فى طريقه من الأحرار إلى المحافظين » .

وكان أول ارتباط سياسى له — بعد ترك تمبل — مع الأحرار ، حيث

= زيوس ، عقابا للبشر على سرقة بروميثيوس للنار . أعطاها زيوس صندوقا فتحته فانطلقت منه إلى الدنيا كل العلل والأمراض التى تصيب الجسم ، (وفى رواية حديثة أطلقت منه كل نسم الحياة فتبددت وضاعت هباء منثوراً ، ولم يبق إلا مجرد الامل .

بذا له أنهم حزب أكثر تقدمية ، ومن الأرجح أن يجدوا عملا لرجل أكبر عقلا وأقل ثراء . وفى ١٧٠١ نشر كتيبا يناصر فيه حزب الأحرار وكله أمل فى الظفر بشىء . ورحب هاليفاكس وسندر لند وغيرهما من زعماء الأحرار ، بانضمامه إلى حزبهم ، ووعدوه خيرا إذا تولوا الحكم . ولكنهم لم ينجزوا ما وعدوا ، ويحتمل أنهم خشوا من أن سويفت رجل لايسهل قياده ، وأن قلمه سلاح ذو حدين ، وفى رحلة موسعة من ايرلنده إلى لندن فى ١٧٠٥ كسب سويفت صداقة كونجريف وأديسون وستيل . وأهداه أديسون نسخة من « رحلات إلى إيطاليا » وكتب فى عبارة الاهداء « إلى جوناثان سويفت ، أحسن رفيق وخير صديق ، أعظم عبقرية فى زمانه يقدم خادمه الذليل ، المؤلف ، هذا الكتاب (١٠٣) » ، ولكن هذه الصداقة ، مثل صداقة جوناثان مع ستيل وبوب ، لم تدم ، وأتت عليها نيران سويفت المتقدة أو ثورته المتصاعدة .

وفى زيارة أخرى لمدينة لندن ، تسلى سويفت بتدمير منجم دعى . ذلك أن جون بارتريدج ، الاسكافى ، أخرج كل عام تقويما زاخرا بالنبوءات للمؤسسة على حركات النجوم . وفى ١٧٠٨ نشر سويفت تحت اسم مستعار « ايزاك بيكرستاف » تقويما منافسا . وكان من بين تنبوءات ايزاك ، أنه فى الساعة الحادية عشرة من مساء يوم ٢٩ مارس سيقضى بارتريدج نحبه . وفى ٣٠ مارس نشر بيكرستاف فى نشوة الانتصار رسالة أعلن فيها أن بارتريدج مات فى ظرف بضع ساعات من الموعد المحدد فى النبوءة ، وذكر فى تفصيل مقنع ترتيبات الجنازة . وأكد بارتريدج لمدينة لندن بأسرها أنه لا يزال حيا يرزق . ولكن ايزاك رد بأن هذا محض افتراء . وأدرك ظرفاء المدينة الخدعة . ورفع مكتب التسجيلات اسم بارتريدج من سجلاته أما ستيل فإنه اختار ايزاك بيكرستاف اسما لمحرر وهمى فى صحيفة « تاتلر » عند افتتاحها فى السنة التالية .

وفى ١٧١٠ غادر سويفت لاراكور مرة أخرى ، موفدا عن الأساقفة

الأيرلنديين ليطلب إلى الملكة آن أن تمد يد معونتها إلى رجال الدين الأنجليكانيين فى أيرلنده : ورفض جودلفين وسومرز ، وهما عضوان من حزب الأحرار فى مجلس الملكة ، للموافقة على هذا إلا إذا وافق رجال الدين هؤلاء ، على التخفيف من حدة « قانون الاختبار » والارخاء من قبضته . وعارض سويفت بشدة التخفيف المطلوب . وا كتشف الأحرار أنه كان « محافظا » بالنسبة للعقيدة الدينية . واعترف سويفت عمليا بانه « محافظ » بالنسبة للسياسة أيضا ، حين كتب : « انى كنت أمقت دوما هذا النهج السياسى . . ألا وهو وضع مصالح ذوى المال فى مواجهة مصالح مالكى الأرض(١٠٤) » . ولجأ الى زعيمى المحافظين ، هارلى وبولنجبروك ولقى ترحيبا حارا ، وأصبح بين عشية وضحاها « محافظا » راسخا . وعين محررا لصحيفة المحافظين « إجزامنر » . وأبرز أسلوبه بوضوح عندما وصف نائب حاكم ايرلنده — وهو من حزب الأحرار ، وكان أديسون صديق سويفت ، سكرتيرا له :

« ان توماس إرل وارتون ... بحكم دستور غريب ، قضى بضعة أعوام من سنى اليأس التى تقدم بها عمره ، دون آثار بارزة للشيخوخة فى جسمه أو فى عقله . وعلى الرغم من مقارفته المستمرة لكل الموبقات التى تعتصر الجسم والعقل كليهما ... فإنه يذهب دوما إلى الصلاة . ويتحدث حديث الفسق والفجور والتجديف على باب الكنيسة ، فهو مشيخى فى السياسة ملحد فى العقيدة . ولكنه يؤثر الآن أن يفجر مع البابوية (١٠٥) »

وسر الوزراء « المحافظون بهذا الهجاء اللاذع الذى يشبه القتل ، فعهدوا إلى سويفت بكتابة فذلكة « سلوك الحلفاء » (نوفمبر ١٧١١) ، كجزء من حملتهم لاسقاط مالبورو وانهاء حرب الوراثة الأسبانية ، واحتج سويفت بأن الضرائب الاستثنائية التى فرضت لتمويل الحروب الطويلة ضد لويس الرابع عشر يمكن خفضها بقصر اسهام انجلترا فى الحروب على البحر ، وأوضح بأجلى بيان شكوى مالكى الأرض من أن عبء نفقات الحرب

وقع على عاتقهم أكثر مما على عاتق التجار وأصحاب المصانع الذين كانوا يستفيدون من الحرب . أما بالنسبة لدوق مالبورو فقد قال سويفت «هل كان من حسن الرأى شن الحرب ، أو لم يكن ؟ ... واضح أن الدافع إلى الحرب ، هو الرفع من شأن أسرة بعينها ، وبعبـــارة موجزة أنها حرب لحساب القائد ووزارة الأحرار ، وليست حربا لحساب الملك والشعب (١٠٦) وقدر الكاتب رواتب مالبورو وتعويضاته بنحو ٤٠ ألف جنيه «وهذا الرقم دقيق (١٠٧) » . وبعد شهر واحد سقط مالبورو وصورت الدوقة زوجته الجريئة الصريحة وهى الوحيـدة فى انجلترا التى كان لسانها حادا لاذعا ، مثل لسان سويفت — صورت فى مذكراتها المسألة من وجهة نظر الأحرار ، فقالت :

«أن السيدين المحترمين مستر سويفت ومستر بريور أسرعا فعرضا نفسيهما للبيع ... وكلاهما من الموهوبين القادرين ، وهما مستعدان لتسخير كل مالديهما لخدمـــة أية فرية مخزية طالما كانت المكافأة مجزية . لأن كليهما لايبالى بحمرة الخجل ولا بالسقوط أو الانزلاق من أجل مصلحة سادتهم الجدد (١٠٨)

وكافأ المحافظون تابعيهما الجديدين . فعينوا ماتيو بريور فى منصب دبلوماسى فى فرنسا حيث أبلى بلاء حسنا . ولم يحصل سويفت على أى منصب ولكنه كان صديقا حميما وثيق الصلة بوزراء المحافظين ، فاستطاع بذلك أن يحصل لكثير من أصدقائه على وظائف تدر مالا وفيرا ولا تقتضى عملا كثيرا . وكان مثال الكرم والعطف على من لم يعارضوه أو يهاجموه . وزعم فيما بعد أنه أهدى لخمسين شخصا أكثر خمسين مرة مما أهداه إليه سير وليم ثمبل (١٠٩) . واقنع بولنجبروك بمساعدة الشاعر جاى Gay وألح على وجوب استمرار الوزارة فى دفع الراتب الذى كان الأحرار يدفعـــونه لكونجريف . ولما طلب بوب جمع بعض التبرعات لمعاونته على ترجمة هوميروس ، أمر سويفت كل أصـدقائه وكل طلاب الوظائف بالتبرع ،

وأقسم « أن المؤلف لن يشرع فى الطبع قبل أن يجمع له ألف جنيه (١١٠) » وغطت شخصيته على مكانة أديسون فى الأندية ، وكان فى كل ليلة تقريبا يتناول العشاء مع العظماء . ولم يكن يطيق من أحدهم أية سمة من سمات التعالى عليه . وكتب يوما إلى ستيللا « إننى مزهو متكبر إلى حد أنى أجعل اللوردات يأتون إلى ... كان مفروضا أن أتناول العشاء فى قصر أشبيرنهام ، ولكن هذه السيدة المنحطة القذرة لم تعرج علينا لنصحبها فى عربتها ، ولكنها أرسلت فى طلبنا خدم ، ولذلك أرسلت إليها اعتذارا (١١١) » .

وفى السنوات الثلاث (١٧١٠ — ١٧١٣) فى انجلترا كتب سويفت الرسائل العجيبة التى نشرت فيما بين ١٧٦٦ ـ ١٧٦٨ تحت عنوان « يوميات إلى ستيللا » . إنه كان فى حاجة إلى صديقة حميمة إلى جانبه فى العشاء لدى الأدواق والدوقات ، وفى انتصاراته السياسيه . أضف إلى ذلك أنه أحب للمرأة الصابرة ، التى ناهزت الثلاثين آنذاك ، ولكنها ظلت تنتظره حتى يحزم أمره . ولا بد أنه أغرم بها ، لأنه كتب لها أحيانا مرتين فى اليوم الواحد ، وأظهر اهتمامه وتعلقه بكل ما يعنيها ، اللهم إلا الزواج . وما كان ينبغى لنا أن نتوقع من مثل هذا الرجل للمستبد للتغطرس ، هذا المزاج الرقيق ، وهذه الألقاب والكنيات الغريبة ، والنكات والتوريات ، والحديث الصبيانى ، مما صبه سويفت فى رسائله التى لم يتوقع نشرها . أنها رسائل زاخرة بالملاطفة والتدليل ، ولكنها خلو من أى عرض أو اقتراح ، اللهم إلا إذا كانت ستيللا قد قرأت وعدا بالزواج فى رسالته المؤرخة ٢٣ مايو ١٧١١ : « لن أطيل الحديث ، ولكنى أتوسل إليك أن تهدئى حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ، وأن تثقى بأن سعادتك هى غاية ما أصبو وأسعى إليه فى كل ما أعمل (١١٢) » ومع ذلك فإنه فى هذه الرسالة يطلق عليها « الطفلة المزعجة ، الساذجة الفتاة للغناج ، البغى ، للمرأة القذرة ، الكلبة المحبوبة » ، وغير ذلك من ألقاب التدليل وللملاطفة . وانا لنلمس روح الرجل

حين يقول لها :

« كنت هذا المساء مع الوزير فى مكتبه . وحلت بينه وبين العفو عن رجل اتهم باغتصاب امرأة . وكان الوزير راغبا فى انقاذه ، على أساس فكرة قديمة تقول بأن المرأة لا يمكن أن تغتصب . ولكنى أبلغت الوزير أنه لا يمكن العفو عن الرجل إلا بناء على تقرير مناسب من القاضى . هذا بالإضافة إلى أنه عازف كمان طابث ، ومن ثم فهو وغد ، ويستحق الشنق لتصرفات أخرى . ومن ثم لا بد أن يموت شنقا . ماذا ؟ إنى لا بد أن أدافع عن شرف الجنس اللطيف ، حقاً أن الرجل قد ضاجعها مائة مرة من قبل ، ولكن ماذا يعنينى فى هذا ؟ . هل يجب أن تغتصب المرأة لأنها بغى (١١٣) » ؟ .

وقد تعيننا هلل سويفت الجسيمة على فهم السر فى رداءة طبعه وسرعة غضبه ، أنه منذ ١٦٩٤ ، وهو فى السابعة والعشرين من العمر ، بدأ يعانى من دوار فى الأذن الداخلية ومن حين لآخر ، وبشكل لا يمكن التنبؤ به ، أصابته نوبات من الدوار وتشويش الذهن والصمم . ونصح طبيب مشهور هو د كتور رادكليف بأن يوضع سائل مركب داخل كيس فى لمة (الشعر الذى يجاور شحمة الأذن) سويفت ، واشتدت به العلة على مر السنين ، وكان من الجائز أن تسبب له الجنون . ويحتمل أنه فى ١٧١٧ قال للشاعر ادوار بنج ، مشيراً إلى شجرة ذابلة « إنى سأموت مثل هذه الشجرة سأموت فى القمة (١١٤) . » وكان هذا وحده كافيا ليتشكك فى قيمة الحياة ، وليرتاب قطعا فى وجه الحكمة فى الزواج . ومن الجائز أنه كان عنينا ، ولكنا لا نستطيع الجزم بهذا . واعتاد على كثرة للمشى اتقاء لهزال جسمه ، فمشى مرة من فارنام إلى لندن : ٣٨ ميلا .

وزاد من شدة مرضه حدة حواسه حدة مؤلمة ، وهى عادة تلازم حدة الذهن وفرط الذكاء . وكان بشكل خاص شديد الحساسية للروائح فى شوارع المدن وفى الناس . فاستطاع أن ينبىء ، بمجرد الشم ، عن صحة من يقابل من

الرجال والنساء ، وخلص من هذا إلى أن الجنس البشرى أصابه النتن(١١٥) . ولذلك كان مفهوم المرأة الجديرة بالحب والإعجاب عنـــده ينحصر إلى حد ما فى :

« أنها لا يخرج من جسمها النقى هبات كريهة الرائحة تثير الاشمئزاز ، لا من خلف ولا من قدام ، ولا من فوق ، ولا من تحت ، ولا يتصبب منها العرق البغيض(١١٦) » .

أنه يصف « غادة جميلة فى طريقها إلى الفراش » ، ونفس المرأة حين تفيق .

« إن من يرى كورينا فى الصباح يتقيأ ، ومن يشم رائحتها يصاب بالتسمم » .

إن مفهومه عن المرأة الشابة الجميلة مرتبط بحاسة الشم :

« إن أعز رفيقاتها لم يرينها يوما تجلس إلى القرفصاء لتتبول ، والك أن تقسم بأن هذه المخلوقة الملائكية لم تحس يوما بضرورات الطبيعة ، فإذا مشت فى شوارع المدينة فى الصيف لم يلوث ابطاها ثوبها . وفى حلبة الرقص فى القرية أيام القيظ لن يستطيع أنف أن يشم رائحة أصابع قدميها(١١٧) » .

وكان سويفت نفسه نظيفا إلى حد التزمت . ومع ذلك فإن كتابات هذا الـكاهن الأنجليـكانى تعد من أفحش ما كتب فى الأدب الانجليزى . أن تبرمه بالحياة جعله يقذف بأخطائه فى وجه زمانه . ولم يبذل أى جهد فى إرضاء الناس ، ولـكنه بذل كل الجهد فى أن يسيطر ويتحكم ، لأن السيطرة خففت من شعوره الخفى بعـدم الثقة فى نفسه . وقال أنه يكره (أو يرهب) كل من لا يستطيع أن يأمره(١١٨) ، على أن هذا لم يصدق على حبه لهارلى . وكان غضوبا عند الشدة ، متغطرساً فظا وقت الرخاء والنجاح . وأحب السلطة أكثر مما أحب المال . وعندما أرسل إليه هارلى بخمسين جنيهاً أجراً لمقالاته ، رد الحوالة وطالب بالاعتذار ، وكان له ما أراد ، فـكتب إلى ستيللا « لقد استرضيت مستر هارلى ثانية(١١٩) » . وكان يكره الرسميات ويحتقر النفاق . وبدا له أن الدنيا تميل إلى قهره ،

وقابل هو المداح بمثله صراحة، وكتب إلى الشاعر بوب :

« إن غاية ما أصبو إليه في كل أعمالي أن أزعج العالم وأضايقه ، لا أن أسليه ، فإذا استطعت أن أحقق هذا الغرض دون أن ألحق الأذى بشخصي أو بثروتي ، لكنت أعظم كاتب لا يكل ولا يمل رأيته أنت في حياتك .. إذا فكرت في الدنيا فأرجوك أن تجلدها بالسوط بناء على طلبي . لقد كنت أبدا أكره الأمم والوظائف والمجتمعات . وكان كل حبي للأفراد ، إني أكره طائفة رجال القانون ، ولكني أحب مستشاراً بعينه أو قاضيا بعينه ، وهكذا الحال مع الأطباء . (ولن أتحدث عن صناعتي) ، والجنود : والانجليز والاسكتلنديين والفرنسيين ، وغيرهم ، ولكني أساساً أكره وأمقت هذا الحيوان الذي يسمى إنساناً ، ولو أني من كل قلبي أحب جون وبيتر وتوماس وهكذا (١٢٠) » .

عند هذا الحد يبدو أن سويفت أقل الرجال جدارة بالحب ، ولو أن امرأتين أحبتاه إلى أن فارقتا الحياة . وأقام في هذه السنوات في لندن قريبا من أرملة غنية تدعى فانهو مراي ، وكان لها ابنان وابنتان ، فإذا لم تتيسر له الدعوة إلى موائد العظماء ، كان يتناول العشاء مع « آل فان » . ووقعت الابنة الكبرى « هستر » في حبه وكانت آنذاك في الرابعة والعشرين (١٧١١) ، وهو في الثالثة والأربعين ، وأفصحت له عن حبها . فحاول أن يصرف النظر عن هذا باعتباره مرحا أو مزاحا عابرا ، وأوضح لها أنه قد كبرت سنه بحيث لم يعد يصلح لها . فأجابت ، يحدوها كل الأمل ، بأنها تعلمت منه في كتبه أن تحب عظماء الرجال قرأت (مونتاني في المرحاض) ، فلماذا لا تحب رجلا عظيما إذا وجدته ماثلا أمامها ؟ فرق قلبه ولانت قناته بعض الشيء فنظم قصيدة من أجل عينيها فقط « كادينوس وفانيسا » قصيدة تجمع بين المرح والمأساة . وكان « فانيسا » اسمه هو عندها ، أما « كادينوس » فكان تصحيفا للفظة « ديكانوس » أي الكاهن الكبير .

obeikandl.com

ذلك أنه فى أبريل ١٧١٣ عينته للملكة كارهة رئيسا لكاتدرائية سان باتريك فى دبلن . وسافر إلى هناك فى يونيه ليتسلم العمل ، ورأى ستيلا وكتب إلى فانيسا بأنه كاد يموت كآبة وكمداً وإستياءا(١٢١) وفى أكتوبر ١٧١٣ عاد إلى لندن وشارك فى كارثة حزب المحافظين المفاجئة ١٧١٤ . ومذ فقد السلطان السياسى بعودة الأحرار الذين كان قدهاجم ، إلى الحكم فى ظل الملك جورج الأول ، فإنه ظل راجعا إلى ايرلنده الكريهة ، وإلى كاثدارئيته . ولم يكن محبوبا فى دبلن لأن الأحرار الذين تولوا الآن الحكم كرهوه لنقده الساخر العنيف وخطبه اللاذعة ، كما كرهه المنشقون لإصراره على استبعادهم من الوظائف العامة . وانطلقت من الناس أصوات الاستهجان والإزدراء به فى الشوارع ، ورجموه بقاذورات البالوعات (١٢٢) ووصف أحد رجال الدين الأنجليكانيين منظر ردائه فى قصيدة ثبتها بالمسامير على باب الكاثدرائية :

« يستقبل هذا المعبد اليوم رئيساً ذا مذاهب وشهرة غير عادية استخدمها جميعاً فى الصلاة وفى الدنس ، خدمة للرب والشيطان كليهما .. وهو مكان حصل عليه بالدهاء والقصيد وبوسائل أخرى من أعجب الوسائل . وربما أصبح يمرور الزمن أسقفا ، لو أنه آمن بالله(١٢٣) » :

وصمد سويفت للمحنة فى شجاعة واستمر يناصر المحافظين ، وعرض أن يشارك هارلى سجنه فى برج لندن . وقام بواجباته الدينية ، وألقى المواعظ بانتظام . ومنح الأسرار المقدسة ، وعاش عيشة بسيطة ، وتصدق بثلث دخله . وفى أيام الأحد فتح أبواب مسكنه للقاصدين ، وجاءت ستيلا لخدمة الضيوف ، وسرعان ماخفت كراهية الناس له ، وبدأوا يقبلون عليه . وفى ١٧٢٤ نشر تحت اسم مستعار « م . ب . درابيية » ست رسائل يندد فيها بمحاولة وليم وود جمع أرباح طائلة من إمداد أيرلنده بعملة نحاسية . واستنكر الأيرلنديون هذه المحاولة . وعندما إكتشفوا أن درابيية لم يكن إلا سويفت ، كاد الكاهن المكتئب أن يصبح شعبيا محبوبا تماما .

وربما استطاع سويفت أن يحظى بلحظات من السعادة لو أنه كان فى مقدوره أن يحتفظ بالبحر الأيرلندى بين السيدتين اللتين أحبتاه . ولكن فى ١٧١٤ ماتت مسز فانهو مراى ، وإنتقلت ابنتها فانيسا إلى أيرلنده لتستغل بعض الممتلكات التى تركها لها والدها فى سلبردج ، على بعد أحد عشر ميلا إلى الغرب من العاصمة . ولتكون بالقرب من رئيس الكاتدرائية ، استأجرت مسكنا فى زقاق تيرنستيل فى دبلن ، على مسافة قصيرة من مسكن ستيللا ، وكتبت إلى سويفت ترجوه أن يزورها ، وإلا ماتت كمداً . ولم يستطع أن يقاوم توسلاتها ، وفيما بين ١٧١٤ — ١٧٢٣ تردد عليها خفية مراراً وتكراراً . ولما خفت زياراته لها أصبحت رسائلها إليه أشد حرارة وإلتهاباً . وقالت له فى إحداها أنها ولدت بهذه « العواطف الجارفة » التى تنتهى كلها إلى شىء واحد : هو حبى لك الذى لا يمكن وصفه أو التعبير عنه » . وأبلغته أنه قد يكون من العبث أن يحاول تحويل حبها إلى حب الله ، « فلو أنى غيورة متحمسة فستظل أنت المعبود الذى يجب أن أعبده »(١٢٤) .

وربما فكر سويفت فى الزواج للخروج من هذا المأزق الذى تورط فيه بين المرأتين اللتين أحبتاه ، وربما طالبت ستيللا ، وهى تعلم أن لها منافسة ، بالزواج على أنه عدالة مطلقة وأبلغ دليل على ذلك أنه تزوجها سراً فى ١٧١٦(١٢٥) وواضح أنه طلب إليها كتمان أمر زواجه . واستمرت تقيم بعيدا عنه . ويحتمل أنه لم يباشرها قط . واستأنف سويفت زياراته لفانيسا ، لا متنازلا ، ولا وحشاً بهيميا ، بل المفهوم أن قلبه لم يطاوعه على أن يتركها يائسة بلا أمل ، أو أنه خشى أن تقدم على الإنتحار . وأكدت رسائله لفانيسا أنه أحبها وقدرها فوق كل شىء ، وأنه سيكن لها هذا الحب والتقدير حتى آخر لحظة من حياته . وسارت الأمور على هذا المنوال حتى ١٧٢٣ ، حين كتبت فانيسا إلى ستيللا تسألها فى صراحة تامة عن العلاقة بينها وبين رئيس الكاتدرائية . فأخذت ستيللا الخطاب إلى سويفت الذى ركب لفوره

إلى فانيسا ورمى بالخطاب على مائدتها . وروعها بنظراته الغاضبه • وتركها إلى غير رجعة دون أن ينبس ببنت شفة •

وعندما أفاقت فانيسا من غشيتها، تحققت آخر الأمر من أنه كان يخدعها. واجتمعت خيبه الرجاء عندها إلى نزعه جامحه فى إفناء ما بقى لها من أسباب الصحه والحياة ، وقضت نحبها فى بحر شهرين من هـــذا اللقاء الأخير (٢ يونيه ١٧٢٣) وهى فى الرابعه والثلاثين • وثأرت لنفسها فى وصيتها • فألغت وثيقه قديمه كانت قد جعلت فيها سويفت وريثاً لها ، ثم أوصت بكل متاعها لروبروت مارشال والفيلسوف جورج بيركلى ، وأمرتهما أن ينشرا دون تعليق رسائل سويفت إليها ، وقصيدة « كادينوس وفانيسا » • وهرب سويفت فى « رحلة إلى الجنوب » فى أيرلنده ، ولم يظهر فى الكاتدرائيه إلا بعد مضى أربعه شهور على وفاة فانيسا •

وعند عودته إنصرف إلى كتابه أشهر وأقسى هجاء وجه إلى الجنس البشرى . وكتب إلى شارلى فورد أنه مشغول بوضع كتاب « يمزق العالم ويهزه هزا عنيفا بشكل عجيب(١٢٦) » . وانتهى سويفت منه بعد سنه ، وحمل المخطوط بنفسه إلى لندن ، ورتب أمر نشره تحت اسم مستعار ، ورضى بمائتى جنيه ثمنا له ، ثم قصد إلى دار الشاعر بوب فى توبكنهام ليستمتع بالعاصفه المرتقبه • وهكذا استقبلت إنجلترا فى أكتوبر ١٧٢٦ « رحلات إلى عدة شعوب بعيدة فى العالم » بقلم لمويل جلليفر . وكان أول رد فعل عام هو الابتهاج بالواقعيه المفصلة فى سرد الأحداث . وإعتبره كثير من القراء تاريخا ، ولو أن أسفاً أيرلنديا (كما يقول سويفت) ذهب إلى أنه مملوء بأشياء بعيدة الاحتمال : أما معظم القراء فإنهم لم يذهبوا إلى أبعد من الرحلات إلى أرض الأقزام Lilliput وأرض العمالقه Brobdingnag، وهذا سرد جميل يوضح بطريقه مفيدة النسبيه فى الحكم على الأشياء أو التمييز بينها ، ولم يزد طول الأقزام عن ست بوصات ، ولذلك نفخوا فى جليفر روحا متزايدة من التسامى . وكان الذى يميز بين الأحزاب السياسيه لديهم هو

الكعوب العالية أو المنخفضة لأحذيتهم . أما الفرق الدينية فهى فريق الذين يؤمنون بكسر البيضة من طرفها الكبير ، وفريق الذين يؤمنون بكسر البيضة من طرفها الصغير . وكان طول العمالقة ستين قدما ، وقد هيأوا لجليفر مشهدا آخر جديدا من مشاهد البشرية . وحسبه ملكهم حشرة ، واعتبر أوربا بيتا للنمل . ومن وصف جليفر لأساليب الحياة ، خاص الملك إلى أن « كل مواطنيكم أخبث جنس من الحشرات الطفيلية الصغيرة البغيضة التى تركتها الطبيعة تزحف على سطح الأرض(١٢٧) » . وكانت صدور خادمات العمالقة ، وهى صدور ضخمة ، تنفر جليفر (ويشير الكاتب هنا إلى النسبية فى الجمال) .

وتضعف القصة فى رحلة جليفر الثالثة . إنه يشد بالسلاسل والأغلال فى دلو إلى « لابوتا » وهى جزيرة سابحة فى الهواء يقطنها ويحكمها رجال العلم والمثقفون والمخترعون والأساتذة والفلاسفة ، فإن التفاصيل التى جاءت فى أماكن أخرى لتزود القصة باحتمالات كثيرة ، كانت هنا (فى المرحلة الثالثة) سخيفة بعض الشىء ، من ذلك أكياس الهواء الصغيرة التى يسد بها الخدم آذان وأفواه المفكرين العميق التفكير ليفيقوا من شرود الذهن الخطير أثناء تأملاتهم . وأكاديمية لاجادو ، بمخترعاتها وقراراتها الوهمية ، ليست إلا نقدا هزيلا لقصة بيكون « قارة الأطلنطس الجديدة » ، وللجمعية الملكية فى لندن . ولم يكن سويفت يثق فى جدوى اصلاح الدول أو حكمها بواسطة رجال العلم ، وكان يسخر من نظرياتهم ، وفنائها السريع لها . وتنبأ بسقوط كوزمولوجيا نيوتن (آرائه فى الكون) « إن الأنظمة الجديدة فى الطبيعة ليست إلا أزياء أو أنماطا جديدة قد تختلف من عصر إلى عصر » وحتى هؤلاء الذين يدعون أنهم يوضحونها على أسس رياضية (تعريضا بكتاب للمبادىء الرياضية ١٦٨٧) لن يكتب لهم النجاح إلا لفترة قصيرة من الزمن(١٢٨) » .

ثم ينتقل جليفر إلى أرض « الجناجيين Luggnaggians » الذين

لايحكمون على أكابر مجرميهم بالموت بل بالخلود .

« فإذا بلغ هؤلاء المجرمون سن الثمانين وهى السن للمعتبرة نهاية الحياة فى بلدهم ، لاتكون فيهم كل الحماقات والسقام والعلل التى فى سائر المسنين فحسب ، بل أكثر منها بكثير ، مما نشأ ممن توقعاتهم الرهيبة بأنهم لن يموتوا قط ، ولم يكونوا عنيدين شكسين طامعين فيما فى أيدى غيرهم ، مكتبئين عابثين ثرثارين فحسب ، بل كانوا كذلك غير أهل للصداقة ، لايستجيبون لأية عاطفة أو حب طبيعى ، لم يهبط قط عن حضرتهم . وكان الحسد والرغبات العاجزة هى الشعور السائد بينهم ... وإذا رأوا جنازة ولولوا وتذمروا من أن الآخرين ذاهبون إلى دار الراحة التى لايأملون هم أنفسهم فى الوصول إليها ... أبداً وكان هذا أفظع منظر مخز مميت للشهوات رأيته فى حياتى . وكانت النساء أشد ازعاجا من الرجال ... ومن هذا الذى سمعت ورأيت ، خفت كثيرا شهوتى الحادة فى البقاء على قيد الحياة(١٢٩) » .

وفى القسم الرابع نبذ سويفت الهزل والمزاح إلى شجب قوى ساخر للانسانية . فان أرض « الهويمن » يحكمها جياد نظيفة وسيمة بهيجة ، تنطق بالحكمة وتتحلى بكل مظاهر المدنية ، على حين أن الخدم الحقراء فيها ، وهم « الياهو المتوحشون » ، هم رجال أقذار كريهو الرائحة ، جشعون مخمورون ، غير متعقلين مشوهون . ومن بين هؤلاء المنحلين المنحطين (هكذا كتب سويفت فى أيام جورج الأول) :

« كان هناك رجل حاكم من « الياهو » (ملك) » ، أبشع شكلا وأكثر نزوعا إلى الشر والأذى من الآخرين ... وكان لهذا الزعيم عادة شخص مثله محسوب عليه أثير لديه ، عمله الوحيد هو أن يلعق قدمى سيده ... ويأتى بنساء الياهو إلى حظيرته ، ومن أجل هذا كان يكافأ من حين إلى حين بقطعة من لحم الحمار (علامة على النبالة ؟) ... وكان يبقى عادة فى عمله هذا ، حتى يمكن العثور على من هو أسوأ منه(١٣٠) » .

وبالمقارنة ، فان « الهويمين » ، لأنهم متعقلون ، كانوا سمداء فضلاء ، ولذلك لم يكونوا فى حاجة إلى أطباء أو محامين أو رجال دين أو قواد جيوش ، وصعقت تلك الجياد المهذبة « الماجنة » ببيان جليفر عن الحروب فى أوربا . كما ذهلت أكثر فأكثر لسماعها بالخلافات التى أدت إلى الحروب — « هل يكون الجسد خبزا أو يكون الخبز جسدا فى القربان المقدس ، وهل يكون عصير ثمار معينة دما أم نبيذا(١٣١) ، وكانوا يقاطعون جليفر حين يفاخر بالمدد الكبير عن البشر الذى يمكن نسفه بالآلات العجيبة التى أخترعها قومه .

وعندما يعود جليفر أدراجه إلى أوربا ، نراه لايكاد يضيق برائحة الشوارع والناس الذين يبدو فى نظره الآن أنهم من « الياهو » .

« استقبلتنى زوجتى وأسرتى بكثير من الدهشة لأنهم كانوا قد قدروا عماتى . ولكن ينبغى على أن أعترف بصراحة أن منظرهم ملأنى بالبغضاء والاستياء والازدراء ... وما أن دخلت البيت حتى احتضنتنى زوجتى بين ذراعيها وقبلتنى ، من أجل ذلك رحت فى اغماءة لما يقرب من ساعة ، لولا أنى معتاد على لمس هذا الحيوان البغيض (الإنسان) لأعوام طويلة . وطيلة السنة الأولى لم أكن أطيق وجود زوجتى وأطفالى معى ، حيث كانت رائحتهم لاتحتمل ... وأول مال أنفقته كان فى شراء جوادين صغيرين احتفظت بهما فى أسطبل مناسب . وكان السائس أعز ما عندى بعدهما ، لأن الرائحة التى تنبعث منه فى الاسطبل كانت ترد إلى روحى(١٣٢) » .

وفاق نجاح « جليفر » كل توقعات للمؤلف وأحلامه وربما خفف من بغضه للجنس البشرى بسبب حاسة الشم . واستمتع القراء باللغة الإنجليزية الواضحة فى غير أطناب ، وبالتفاصيل المريضة ، وبالفحش المرح . وتنبأ آربوثنوت للكتاب « رواجاً عظيماً مثل كتاب جون بانيان — يقصد كتاب « تقدم الحجيج » . ولا ريب أن سويفت يدين ببعض الفضل لهذا الكتاب ، وبفضل أكبر لكتاب « روبنصن كروزو » ، وربما بشىء من

الفضل لكتاب سيرانودى برجراك « التاريخ الهزلى لدول امبراطورية القمر » . أما الشىء الجديد حقا فهو « الكلبية » أو السخرية الرهيبة فى الأجزاء المتأخرة من الكتاب . وحتى هذه وجدت من يعجب بها ، فأن دوقه مالبورو ، وقد بلغت آنذاك أرذل العمر ، غفرت لسويفت هجماته على زوجها ، إلى جانب حملاته على الجنس البشرى بأسرة . وصرحت بأن سويفت أتى « بأدق وصف يمكن أن يكتب للملوك والوزراء والأساقفة والمحاكم . وروى جاى أنها « فى نشوة غامرة من الابتهاج بالكتاب ، ولا يمكن أن تحلم بشىء آخر »(١٣٣) .

وتكدر انتصار سويفت بنشر قصيدة كادينوس وفانيسا ، فان منفذى وصية هستر فانهو مراى أذعنوا لأمرها بنشرها ، ولم يطلبوا من الكاتب ترخيصاً بذلك ، وظهرت فى طبعات مستقلة فى لندن ودبلن وادنبره ، وكانت ضربة قاسية للزوجة ستيللا لأنها رأت أن عبارات الحب والهيام التى كانت قد وجهت يوما إليها ، تكررت لفانيسا ، ولم يمض كبير زمن على افتضاح هذا الأمر حتى مرضت ، وقصد سويفت إلى ايرلنده لعيادتها والتخفيف عنها ، وتحسنت صحتها ، وعاد هو إلى انجلترا (١٧٢٧) ، وسرعان ما ترامت إليه الأنباء بأنها تحتضر ، فأرسل تعليمات عاجله إلى مساعديه فى الكاتدرائية بأن ستيلا يجب ألا تلفظ أنفاسها الأخيرة فى مقر رئاسة الكاتدرائية(١٣٤) ، وعاد ادراجه إلى دبلن ، ومرة أخرى أبلت ستيللا بعض الشىء ، ولكنها فارقت الحياة فى ٢٨ يناير ١٧٢٨ ، وهى فى السابعة بعد الأربعين ، وانهارت قوى سويفت ، واشتد عليه المرض فلم يستطع تشييع الجنازة .

وبعدها أقام فى دبلن « مثل فأر مسموم فى جحر(١٣٥) » (كما كتب إلى بولنجبروك) . وكان يقوم بأعمال البر والصدقات ، وأجرى راتبا على مسز دنجلى ، ومد يد العون إلى ريتشارد شريدان فى محنة شبابه ، وكان فى ظاهره رجلا قاسياً ، ولكنه تأثر تأثراً بالغاً لفقر الشعب الايرلندى ، وصعق لكثرة عدد المتسولين من الأطفال فى شوارع دبلن ، وفى ١٧٢٩

أصدر أشد مقالاته التهكمية الساخرة ضراوة ولذعاً تحت عنوان « اقتراح متواضع لمنع أطفال الفقراء من أن يكونوا عالة على آبائهم وعلى بلدهم » :

« لقد تأكد لدى كل التأكيد .... أن الطفل الصغير الصحيح الجسم الذى بلغ من العمر سنة ، يصلح لأن يكون طعاما شهياً مغذياً صحياً ، إلى أبعد حد ، مطهواً بالغلى البطىء أو مشوياً أو مهصاً أو مسلوقا ، كما يصلح بالمثل لأن يكون « مفروما محمراً ، أو يخنة كثيرة التوابل » . ومن ثم فانى بكل تواضع ، أعرض على الرأى العام ، أنه من بين المائة والعشرين ألف طفل للموجودين الآن ، يمكن الاحتفاظ بعشرين ألفاً فقط لتربيتهم وتنشئتهم ، على أن يكون ربعهم من الذكور ، أما المائة ألف طفل الباقون فيمكن عرضهم للبيع إلى ذوى المكانة والثراء في طول المملكة وعرضها ، مع نصيحتى دوماً إلى الأمهات بالإكثار من ارضاعهم فى الشهر الأخير ، حتى تمتلىء أجسامهم ويكونوا سميناً تزدان بهم الموائد الفخمة ، إن الطفل الواحد يمكن أن يكون طعام يقدم للأصدقاء ، أما إذا كانت الأسرة تتناول غذاءها وحدها فان الربع الأمامى أو الخلفى من الذبيحة يكون طبقاً كافياً ، وإذا تبل ببعض الفلفل أو الملح لكان طيب المذاق ...

أما الذين هم أكثر تدبيراً واقتصاداً فيمكنهم أن يسلخوا الجثة ، ويعالجوا جلدها بطريقة خاصة ليصنعوا منه قفازات لطيفة للسيدات ، وأحذية صيفية للرجال الأنيقين ....

إن بعض الذين جزعوا لهذه الظاهرة اهتموا اهتماماً كبيراً بهذا العدد الضخم من المسنين أو المرضى أو المقعدين والمهوهين ، ورغبوا إلى أن أعمل التفكير فى الوسائل التى يمكن أن تتخذ لتخليص الأمة من هذا العبء الثقيل المحزن ، ولكني لا أتألم كثيراً لهذه المسألة لأن المعروف جيداً أنهم يموتون وتبلى أجسامهم فى كل يوم من البرد والجوع والقذارة والهوام ، بالسرعة المتوقعة بداهة . .

وأظن أن مزايا الاقتراح الذى عرضته واضحة متعددة ...

وأولى للزايا ، أن هذا يخلصنا إلى حد كبير من عـــدد البابويين (اليسوعيين) الذين يجتاحوننا كل عام ، لأنهم للربون الأساسيون للأمة ، قدر ماهم ألد أعـدائنا وأخطرهم ... وثالثها أنه من حيث أن تربية مائة ألف طفل من سن الثانية فما فوق ، لا يمـكن أن يتـكلف الواحد أقل من عشر شلنات فى العام ، فبهذا الاقتراح سيتوفر للأمـــة خمسون ألف جنيه سنوياً ، هذا بالإضافة إلى فائدة اللون الجديد من الطعام الذى يقدم إلى موائد ذوى الثراء والوجاهة .... الذين يتحلون بالذوق الرفيع » ..

إن نتاج يراع سويفت ، ذلك النتاج الغريب ، والثائر أحياناً ، وبخاصة بعد وفاة ستيللا ، يوحى بأنه قد أصابه مس من الجنون ، « إن شخصاً من ذوى المكانة فى ايرلنده (كان يسره أن ينحنى كثيراً ليدقق النظر فى عقلى) اعتاد أن يقول لى أن عقلى مثل روح مسحورة ، قد يؤذى ويسىء إذا لم أشغله بشىء(١٣٦) » .

وتساءل أحد الأصدقاء : إن مبغض البشرية الكئيب هـــذا ، والذى تركته الأخطاء الصارخة فى بيت من زجاج ، بينما هو يسلق البشرية بألسنة حداد من الهجاء ، ألا يغنى فساد الناس ومساوئهم جسدك ويستنزف روحك ؟ » ، « إن غضبه على العالم كان امتداداً لغضبه على نفسه ، فقـد أدرك أنه على الرغم من عبقريته ، معتل الجسم مريض النفس ، ولم يـكن يغتفر للحياة حرمانه من الصحة والأعضاء السليمة وهدوء البال ، والتقدم الذى يتناسب مع قوة عقله .

وكان آخر مظهر لقسوة الحياة على سويفت ، هو اختلال قواه العقلية يوماً بعد يوم . وازداد بخله وجشعه ، حتى وسط أصدقائه وقيامه بأعمال البر . فـكان يضن بالطعام على ضيوفه ، وبالنبيذ على أصدقائه(١٣٧) . وازدادت نوبات الدوار عنده سوءا ، فما كان يدرى فى أية لحظة منحوسة ينتابه هذا الدوار ليجعله يترنح ويتلوى من الألم فى هيـكله أو فى الشارع .

وكان قد رفض أن يضع النظارات على عينيه فضعف بصره وترك القراءة . ومات بعض أصدقائه ، ونأى بعضهم بنفسه عنه ، اجتناباً لحـــدة طبعه واكتئابه ، وكتب إلى بولنجبروك : « كثيراً ما فكرت فى الموت ، ولكنه الآن لايغيب عن ذهنى أبداً (١٣٩) » وبدأ يتلهف عليه . واحتفل بيوم ميلاده يوم حـداد وحزن . وقال « ليس هناك رجل عاقل يرغب فى استعادة شبابه(١٤٠) » . وفى أعوامه الأخيرة كان يودع زائريه دوماً بقوله « سعدتم مساء ، أرجو ألا أراكم ثانية (١٤١) » .

وظهرت أعراض الجنون التام عليه فى ١٧٣٨ . وفى ١٧٤١ عين بعض الأوصياء ليتولوا شؤونه ، ويراقبوه حتى لايلحق بنفسه أى أذى فى نوبة من نوبات العنف والجنون التى تصيبه . وفى ١٧٤٢ عانى ألماً شديداً من التهاب فى عينه اليسرى التى تورمت حتى صارت فى حجم البيضة . وأحاط به خمسة من الأتباع ليحولوا بينه وبين قفء عينه بيده . وقضى عاما لاينطق ببنت شفة . وآذنت محنته بالإنتهاء فى ١٩ أكتوبر ١٧٤٥ ، وقد بلغ الثامنة بعد السبعين . وأوصى بكل ثروته البالغة اثنى عشر ألف جنيـــه لبناء مستشفى للأمراض العقلية . وورى التراب فى كاتدرائيته ، ونقش على ضريحه عبارة اختارها بنفسه :

« حيث لا يعود السخط المرير يمزق قلبه » .

obeikandl.com

فهرس

الفصل السابع

كرومول ١٦٤٩ — ١٦٦٠

١ — الثورة الإشتراكية . ٥
٢ — ثورة أيرلندة . ١٠
٣ — ثورة اسكتلندة . ١٣
٤ — أوليفر حاكماً مطلقاً . ١٦
٥ — ذروة البيوريتانية . ٢٣
٦ — الكوميكرز . ٢٧
٧ — الموت والضرائب . ٣٣
٨ — طريق العودة : ١٦٥٨ — ١٦٦٠ . ٣٧
٩ — ويعود الملك ١٦٦٠ . ٤١

الفصل الثامن ملتون ١٦٠٨ — ١٦٧٤

١ — جون بنيان ١٦٢٨ ـ ١٦٨٨ . ٤٥
٢ — الشاعر الشاب ١٦٠٨ ـ ١٦٤٠ . ٥٣
٣ — المصلح ١٦٤٠ ـ ١٦٤٢ . ٦٠
٤ — زواج وطلاق ١٦٤٣ ـ ١٦٤٨ . ٦٧
٥ — حرية الصحافة ١٦٤٣ ـ ١٦٤٩ . ٧١
٦ — سكرتير اللغة اللاتينية ١٦٤٩ ـ ١٦٥٩ . ٧٥
٧ — الشاعر العجوز ١٦٦٠ ـ ١٦٦٧ . ٨٦
٨ — السنوات الأخيرة ١٦٦٧ ـ ١٦٧٤ . ٩٤

الفصل التاسع عودة الملكية ١٦٦٠ ـ ١٦٨٥

١ — الملك السعيد . ١٠١

٢ — مرجل الدين .	١١٢
٣ — الإقتصاد الإنجليزى ١٦٦٠ ـ ١٧٠٢	١٢٣
٤ — الفن والموسيقى ١٦٦٠ ـ ١٧٠٢ .	١٣٣
٥ — الأخلاق .	١٤٢
٦ — العادات .	١٥٠
٧ — الدين والسياسه .	١٥٦
٨ — المؤامرة البابوية .	١٦١
٩ — خاتمه الملهاة .	١٦٨

الفصل العاشر

الثورة الجليلة ١٦٨٥ ـ ١٧١٤

١ — الملك الكاثوليكى ١٦٨٥ ـ ١٦٨٨ .	١٧٥
٢ — الاطاحه بالعرش والملك فى المهد .	١٨٦
٣ — إنجلترا تحت حكم وليم الثالث ١٦٧٩ ـ ١٧٠٢ .	١٩٣
٤ — إنجلترا فى عهد الملكة آن ـ ١٧٠٢ ـ ١٧١٤ .	٢٠٣

الفصل الحادى عشر

من دريدن إلى سويفت ١٦٦٠ ـ ١٧١٤!

١ — صحافه حرة .	٢١٢
٢ — المسرحيه فى فترة عودة الملكيه .	٢١٥
٣ — جون دريدن ـ ١٦٣١ ـ ١٧٠٠	٢٢٩
٤ — فى ثبت واحد .	٢٣٩
٥ — إيفلين وبيبز .	٢٤٤
٦ — دانيال ديفو ١٩٥٩ ـ ١٧٣١	٢٥٠
٧ — ستيل وأديسون .	٢٥٥
٨ — جوناتان سويفت .	٢٦٨